Scanned by CamScanner

حَدِيقَةُ المَوتِ

نفخهما.. فطارا

رواية

أحمد المنزلاوي

دار العلم والمعرفة
دار التقوى

محفوظة
جميع الحقوق

اسم الكتاب : حديقة الموت
تأليف : أحمد المنزلاوي
القطع : ١٥ X ٢٢
عدد الصفحات : ١٦٠ صفحة
سنة الطبع : ١٤٣٩هـ / ٢٠١٨ م (طبعة جديدة)
الناشر : دار التقوى للطبع والنشر والتوزيع
طباعة : دار العلم والمعرفة - القاهرة

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق القومية - مصر
2018/4261
الترقيم الدولي : 7-481-429 -977-978

دار العلم والمعرفة

دار التقوى
للطبع والنشر والتوزيع

٨ ش البيطار - خلف الجامع الأزهر
ت: ٢٥١٤١٧٠٤ / ٠٠٢٠٢ ٤٤٧١٥٥٠٦ ٠١٠٠١٥٩٢٢٧١
E-mail: dar_altakoa@hotmail.com
dar_altakoa@yahoo.com

Scanned by CamScanner

(١)

شمس تغيب ويقفو إثرها قمر، ونور صبح وبعده حلك، والأرض وشي والنسيم معنبر، والتفت الغصون كتعانق الأحباب، وانتشر النوّار الأصفر علىٰ جبين الصحراء كتاج من الذهب علىٰ رأس عروس مزينة، ونبعت العيون بماء زلال، وسالت الأودية بالحياة وأضاء مسجد المدينة أرجاءَها، واجتذب القلوب إليه كمغناطيس وسط قطع من الحديد، فكان الناس من كل مكان يجتمعون بين سراياه، قد غادروا فُرُشهم مع آخر هديل الليل السَّاجي، فنهضوا يشهدون مولد النَفَسِ الأول لوردة البكور.

كانت كلمات الإقامة إشعارًا ثانيًا -بعد الأذان- بضرورة نفض كل ما بقيىٰ من علائق التراب قبل الإذن للأجنحة أن تقلع في طريقها إلىٰ التحليق في سماء الروح:

- قد قامت الصلاة.. قد قامت الصلاة.

اصطف المسلمون بقلوبٍ وجلة، لصلاة الفجر، دوالٍ من نورٍ تتلاحم أغصانها لتنسج خمائل تتلألأ، كانت المشكاة في المحراب ترسل نورها الدري، وكانت القلوب تتوق إلىٰ

Scanned by CamScanner

التعلق بأستار الكعبة وقد وَلَّوا وجوههم شطر المسجد الحرام وقد ابتعدت المسافات، يرفع إمامهم كفيه حذو منكبيه فترتعش أفئدتهم خوفًا ورجاءً وهو يأذن بتكبيرة الإحرام معلنًا قطيعة عالم الرغام والأوهام:

- الله أكبر.

ترتفع الأيدي المحجَّلة بالوضوء خلفه لتُفرغ البال من جميع الأحوال إلا حال الفقر المُرفق بالشوق إلىٰ الغني الحميد ثم تتأدب بالتزام الصدر في وقفة العبد بين الملك العظيم.

وتنطلق الأسراب محلقة لمزاحمة الملائكة في مدار النور عند أبواب ملك الكون، تحس بيقظة الروح، حياة كريمة بين يدي رب العالمين..

وينطلق الترتيل..

ها هنا مقام المناجاة، ها هنا تقف الذات المستعيذة محتمية بجوار الله وهي ترتل مواجيد ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾.

كانت أصداء التأمين ما تزال تتجاوب مع أصداء السماء، أفئدة المصلين تخفق إجلالًا لجمال الله، آيات الفاتحة السبع كافية لعمران قلوبهم، كلماتها تفيض من القلب ريانة بشعور غيداق يتلقاها الله بالقبول.

Scanned by CamScanner

ويسكت الإمام ليتهيأ بما تيسر قراءته من القرآن، برزخ شوق ينتفض من القلوب رغبة في الارتقاء إلىٰ مقام الجوار الأعلىٰ..

وإذا بالإمام يُرتل:

﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ۝٣﴾..

يردد آياتها فتزداد جمالًا، وينغمها بصوته فتتزين كلماتها، يقف علىٰ الوعيد خاشعًا، وعلىٰ الوعد راجيًا.. والقلوب تحلق معه بين الجنة والنار، خاشعة متصدعة لكلمات ربها، مطربةً لصوته العذب الندي.

كان الحزن الصاعد من الأعماق يشكل في أفق المحراب بارقةً تضرب بين جناحي قلب السالك، وتعرُجُ في خفقان يحدوه مقام الخوف والرجاء، فترتفع الأشواق إلىٰ بارئها، مستغيثة وملبية تلهج بمعاني الحمد والثناء، ويرسم الحرف القرآني في النفس شعاعًا لا يصدم بساحل، فترىٰ أن العمر -كل العمر- لا يكفي ولا لتذوق كأس واحدة من بحار كلمات الله.

- السلام عليكم ورحمة الله.. السلام عليكم ورحمة الله.

أنهىٰ رسول الله صلاته بالسلام وتابعه الصحابة لتحط أبدانهم علىٰ الدنيا من جديد وقلوبهم معلقة في عوالم الروح، كان المسجد النبوي قد امتلأ عن آخره، بعد التوسعة الأخيرة التي جعلته أكثر استيعابًا لعدد المسلمين المتزايد، وعلىٰ الرغم من أن بناء المسجد من اللَّبِن وسعف النخيل، وسقفه من جذوع النخل وفراشه الحصىٰ والتراب، فإنه عند الصحابة واحة خضراء، وحديقة غناء، كان النبي لا يزال يجلس في اتجاه القبلة يعقد التسبيح علىٰ يديه، لحيته تهتز من آثار تحريك فكَّيه بالذكر، استدار في مكانه وأَقْبَلَ علىٰ أصحابه بِوَجْهِهِ الشريف، كأنه بَدر ليلة الاكتمال، وجهه أَبْيَض مَلِيح مستدير مع طولٍ يسير، تَشَرَّبَ بياضُه بحُمرةٍ فأشرق كشمسٍ في كبد السماء، عَينَاه سوداوان، واسعتان في مَحْجِرَيْهما، في بياضهما عروق حمراء رقاق، كأنَّ الكُحل قد ارتكز علىٰ أَشْفَارِهما الطويلة المتسعة، وفوق تلكما العينين حاجبان ممتدان في تَقَوُّسٍ لَطِيفٍ، علىٰ جبين واسع يتلألأ كأنه ضوء السرج المتوقد، أنفه به بعض الطول مع انحناءة في منتصفه زادته جمالًا، مترصة أسنانه بفمه بلا اعوجاج كأن اللؤلؤ في ثغره براقًا، سَهلُ الخدَّين، نبتت من تحتيهما لحية

عريضة ملأت صدره، مكرمة ليس بها شَعَث، لم يعرف الشيب منها إلا سبعَ عشرة شَعرَةً تجمعت في عَنْفَقَتِها تحت الشفة السُفلىٰ، بينما شاربه منهكًا ضعيفًا، تزين رأسه بتاجٍ من شَعره الناعم الكثيف المترجل المفروق علىٰ الجانبين ليصل إلىٰ شحمة أذنه، عليه عمامة سوداء، قد أرخىٰ طرفها بين كتفيه.

ليس بالطويل البائن ولا القصير المُتَرَدِّد، عليه ثياب بيضاء وحُلة حمراء، رائحة المسك تفوح منها، من بين فتحات ثيابه يظهر وَضي ضوءٍ من نورٍ ما تجرد من جسده، عظيم المنكبين واسع الصدر، متماسك البدن، ضرب اللحم، ليس بالسمين المترهل، ولا بالنحيف المهتزل، سواء البطن والصدر جسمه متناسق بشكلٍ لم يُرَ له مثيلٌ من قَبْل، من رآه بديهة هَابه، عَقَدَّ التسبيحات علىٰ أنامله، وانتهىٰ من الأذكار، وهو ثانٍ قدميه تحت فخذيه، وارتكز بركبتيه علىٰ الأرض، ثم سأل:

- مَنْ رَأَىٰ مِنْكُمُ اللَّيْلَةَ رُؤْيَا؟

كل يوم يسألهم السؤال نفسه، فَيُقَصُّ عليه من رأىٰ رؤياه، فيَقُول: «مَا شَاءَ اللهُ» ويعبرها له، أما اليوم فلم يجبه أحد، فقال:

«بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُ فِي يَدَيَّ سِوَارَيْنِ مِنْ ذَهَبٍ، فَأَهَمَّنِي شَأْنُهُمَا، فَأُوحِيَ إِلَيَّ فِي الْمَنَامِ أَنِ انْفُخْهُمَا، فَنَفَخْتُهُمَا فَطَارَا، فَأَوَّلْتُهُمَا كَذَّابَيْنِ يَخْرُجَانِ مِنْ بَعْدِي».

Scanned by CamScanner

وأقبل أبو هريرة علىٰ رسول الله وهو يبكي، قد سقطت بعض دموعه علىٰ لحيته، فقال:

- يا رسول الله إني كنت أدعو أمي إلىٰ الإسلام فتَأْبَىٰ عَلَيَّ، فدَعَوتُها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره، فادع الله أن يهدي أم أبي هريرة.

ربت رسول الله علىٰ كتفه، وقد أرخىٰ ضفيرتي شعره إلىٰ ظهره، ورفع النبي بصره إلىٰ السماء داعيًا:

- اللهُمَّ اهْدِ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ.

❁❁❁

انصرف الجميع وخرج أبو هريرة مستبشرًا بدعوة نبي الله ﷺ، وانطلق حيث بيت أمه، فلما وصل إلىٰ الباب، وجده مغلقًا، فسمعت أمه خشف قدميه، فقالت:

- مكانك يا أبا هريرة.

وقف علىٰ الباب ولم يدخل وهو يسمع صوت خضخضة الماء، وكانت أمه تغتسل، فلبست درعها وعجلت عن خمارها، ففتحت الباب، ثم قالت:

- يا أبا هريرة، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

Scanned by CamScanner

فرجع مهرولًا إلىٰ رسول الله ﷺ، يبكي من الفرح، فوجده لم يدخل بيته بعد، فقال له:

- يا رسول الله أبشر، قد استجاب الله دعوتك وهدىٰ أم أبي هريرة.

فتهلل وجه النبي فرحًا، وحمد الله وأثنىٰ عليه وقال خيرًا، فقال أبو هريرة:

- يا رسول الله، ادع الله أن يُحَبِّبَنِي أنا وأمي إلىٰ عباده المؤمنين، ويحببهم إلينا.

- اللهم حبب عُبَيْدَكَ هذا وأمه إلىٰ عبادك المؤمنين، وحبب إليهم المؤمنين.

علىٰ الفور دعا النبي لهما، وقد كان لأبي هريرة منزلة عنده منذ أن أسلم.

(٢)

علىٰ حدود المدينة كانت سرية من سَرايا رسول الله تجوس خلال الديار تحسبًا أن يطرق المدينة طارق، أو يريدها معتدٍ بشر.

وبينما هي في جولتها إذ رأت من بعيد فارسًا يقبل علىٰ

Scanned by CamScanner

خيله، ويقترب من المدينة، فاستوقفوه، فرأوه غريبًا.

أسرت السرية الغريبَ وأتت به إلىٰ مسجد رسول الله وشدته بين سواريه، منتظرة أن يقف النبي القائد بنفسه علىٰ شأن الأسير ويأمر فيه بأمره.

❁❁❁

خرج النبي ﷺ من أحد بيوت زوجاته المطلة علىٰ المسجد، ليرىٰ فيه هذا الأسير مشدود الوثاق، فقال لأصحابه:

- أتدرون من أخذتم؟

- لا يا رسول الله.. رأيناه غريبًا يحوم حول المدينة، فارتبنا فيه، وأتينا به إليك.

- هذا ثمامة بن أُثال الحنفي.

وقع اسمه علىٰ مسامع الصحابة في المسجد كالصاعقة، إنه ملك اليمامة وسيد بني حنيفة، كاتبه النبي في جملة من كاتبهم من ملوك العرب والعجم ليدعوهم للإسلام، لكنه تلقىٰ رسالة النبي بالاحتقار والإعراض، وأصمَّ أذنيه عن دعوة الحق، وجعل يتربص بالصحابة حتىٰ ظفر بعدد منهم وقتلهم شر قتلة، وحاول اغتيال النبي من قبل.. وقد أعلن النبي ﷺ أن دمه مهدرٌ يقتل في حل وحرم.

Scanned by CamScanner

شريط من الصور الملتقطة عرض علىٰ مخيلة الصحابة فور سماعهم اسمه، لم يوقفه إلا مقالة النبي لهم:

- أحسنوا أَسَارَه.

❁❁❁

رجع النبي إلىٰ أهله، فقال:

- اجمعوا ما كان عندكم من طعام وابعثوا به إلىٰ ثمامة بن أثال، ثم أمر بناقته أن تُحلب في الغدو والرواح، ويقدم إليه لبنها.

أقبل النبي ﷺ علىٰ ثمامة وقال:

- ما عندك يا ثمامة؟

- عندي يا محمد خير.. إن تقتل، تقتل ذا دم، وإن تنعم، تنعم علىٰ شاكر، وإن كنت تريد المال، فسل تعطىٰ منه ما شئت.

فتركه النبي ﷺ يومين علىٰ حاله يؤتىٰ إليه بالطعام والشراب، ويحمل إليه اللبن صباح مساء، ثم جاءه فقال:

- ما عندك يا ثمامة؟

- ليس عندي إلا ما قلت لك من قبل.

أعاد عليه مقالته السابقة، فتركه الرسول ﷺ حتىٰ إذا كان اليوم التالي جاءه فقال:

Scanned by CamScanner

- ما عندك يا ثمامة؟

- عندي ما قلت لك.. إن تنعم، تنعم على شاكر، وإن تقتل، تقتل ذا دم، وإن كنت تريد المال، أعطيتك منه ما تشاء.

ها هو ثمامة يُغير الترتيب في خياراته، فإن كان يقدم أولًا القتل في المرات السابقة فهو الآن يقدم الإنعام؛ لِمَا رآه من حسن عهد النبي له ورعايته إياه، فليس هو من يريد الانتقام دمًا بدم، فالتفت رسول الله إلى أصحابه، وقال:

- أطلقوا ثمامة.

استجاب الصحابة إلى أمر الرسول ﷺ والحذر يمتلكهم، فإطلاقه يمثل خطرًا شديدًا عليهم، لكن ليس لهم إلا أن يستجيبوا لرسول الله، ففكوا وثاقه، وأطلقوه.

(٣)

كان الإسلامُ قد صلبَ عودُه، وقويت شوكته، ورَسَخَت دعائمُه، ودخلت السنة التاسعة للهجرةِ، وطفقت وفود العرب تشُد الرحال من أنحاء الجزيرة إلى المدينة المنورة للقاء رسول الله ﷺ وإعلان إسلامها بين يديه، ومبايعته على السمع والطاعة.

Scanned by CamScanner

قَدمَ وفد من اليمن وساقوا معهم صدقات أموالهم التي فرض الله عليهم، فسُرَّ النبي عليه الصلاة والسلام بهم، وأكرم منزلهم، وقالوا له:

- يا رسول الله سُقنا إليك حقَّ الله في أموالنا.

فقال عليه الصلاة والسلام:

- رُدُّوها علىٰ فقرائكم.

- يا رسول الله، ما قدمنا عليك إلا بما فضَل عن فقرائنا.

فقال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

- يا رسول الله، ما وَفدَ من العرب بمثل ما وفد به هذا الحي من اليمن.

- إنَّ الهدىٰ بيد الله عَزَّوَجَلَّ فمن أراد به خيرًا شرح صدره للإيمان.

جَعَلَ الوفد اليمني يسألون النبي ﷺ عن القرآن والسُّنن، فازداد النبي عليه الصلاة والسلام بهم رغبةً، وأمر بلالًا أن يُحسن ضيافتهم، وكانوا ثلاثة عشر رجلًا، بعضهم من «الأبناء» وهم جماعة من الناس آباؤهم من الفُرس الذين نزحوا من بلادهم إلىٰ اليمن لطرد الحبشة عنها، وأمهاتهم من العرب، وقد أسلموا مع «باذان بن ساسان» وقد كان عامل كسرىٰ علىٰ اليمن، فلما بعث رسول الله ﷺ -سنة ستٍ من الهجرة- طائفةً من

Scanned by CamScanner

أصحابه بكتُبٍ إلىٰ ملوك الأعاجِم يدعوهم فيها إلىٰ الإسلام، وبلغت رسالة النبي كسرىٰ، دعا كاتِبًا عربيًا مِن أهل الحيرة، وأمره أن يفُضَّ الكِتاب بين يديه، وأن يَقْرأَ عليهِ فإذا فيهِ:

«بِسم الله الرّحمن الرَّحيم، من محمدٍ رسول الله إلىٰ كِسرىٰ عظيم فارس، سلامٌ علىٰ من اتبَعَ الهُدىٰ...».

فما أن سمِع كِسرىٰ من الرِسالةِ هذا المِقدار حتّىٰ اشتعلتْ نار الغضب في صدرهِ، فاحمرّ وجهه وانتفَخت أوادجُه، واندفع من فوق عرشه قائمًا، فجذَب الرسالةَ من يدِ كاتِبهِ وَجَعل يُمَزِّقُها دون أن يعلَم ما فيها وهو يصيحُ:

- أيَكتُب لي بهذا وهَو عبدي؟!!

ثَمّ أمر بعبد الله بن حُذافة رسول رسول الله الذي أحضر رسالته أن يُخرَجَ مِن مجلِسِه، فأُخرِجَ، ورَكِبَ راحِلَتَهُ وانطلَق راجعًا حيث أتىٰ.

ولما سكتَ عن كِسرىٰ الغضَب، أمَر بأن يدخُل عليه عبد الله؛ فلَم يوجد، فالتَمَسُوهُ فلم يقِفوا له علىٰ أَثْرْ...

فلمَّا قَدِم عبد الله علىٰ رسول الله ﷺ أخبره بما كان من أمْرِ كِسرىٰ وتمزيقِه الكِتاب، فما زاد عليه الصَلاة والسلام علىٰ أن قالَ:

- مزَّق الله مُلْكَه.

Scanned by CamScanner

(٤)

مرت سنة واحدة على فتح مكة، وهي السنة التي عاشها «وحشي بن حرب» مسلمًا، ففي رمضان من العام الثامن للهجرة، دخل النبي ﷺ مكة فاتحًا، وضاقت الأرض بما رحبت على «وحشي» فقد كانت مكة مَلْجَأه بعد فعلته النكراء وقتله «حمزة بن عبد المطلب» عم النبي ﷺ في غزوة أُحد.

دخل الجيش الإسلامي كل حسب موقعه ومهامه، في عشرة آلاف مقاتل، فأخذ أبو سفيان بن حرب ينادي بأعلى صوته:

- يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قِبل لكم به، فمن دخل داري فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن.

هذا وعد رسول الله له، بعد أن أسلم، فهرع الناس إلى دورهم وإلى المسجد، وأغلقوا الأبواب عليهم، وهم ينظرون من شقوقها وثقوبها إلى جيش المسلمين، وقد دخل مرفوع الجباه، والنبي يقرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفتح:١].

Scanned by CamScanner

وأخذ المسلمون يهتفون بجنبات مكة وأصواتهم تشق عنان السماء:

- الله أكبر.. الله أكبر.

وعرفت قريش أن الرسول أمر قواده ألا يقتلوا إلا من قاتلهم، فأزمعت أن تخلي للنبي السبيل إلىٰ مكة، لكن عكرمة بن أبي جهل ونفرًا معه خرجوا عن إجماع قريش وتصدوا للجيش الفاتح، فهزمهم خالد بن الوليد، في معركة صغيرة، وقتل منهم ثمانية وعشرين، ولاذ بالفرار مَن أمكنه الفرار، وكان في جملتهم عكرمة.

تحسس «وحشي» قوة النبي ﷺ وانتصاره وخضوع قريش له، وهاله أمره وهو يطوف حول الكعبة بجيشه العظيم يحطمون الأصنام من حول الكعبة، وكانت بعدد أيام السنة ثلاثمائة وستين صنمًا، فجعل النبي يطعنها ويقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ٨١] فصارت كلها هشيمًا محطمًا، فولَّىٰ «وحشي» هاربًا إلىٰ الطائف يلتمس فيها الأمن كي لا يثأر النبي لسيد الشهداء.

وأعلن النبي ﷺ علىٰ رءوس الأشهاد أسماء نفرٍ معينين كانوا قد عادوا الإسلام أشد العداء، وحاربوا المسلمين وصدوهم عن سبيل الله، فأمر بقتلهم وإن تعلقوا بأستار

Scanned by CamScanner

الكعبة، كان في طليعتهم عكرمة الذي تسلل متخفيًا ويمم وجهه شطر اليمن إذ لم يكن له ملاذ إلا هناك.

❁❁❁

بعد أن تطهرت الكعبة من الأوثان كلها، جاء النبي ليدخلها، ولم يدخل معه سوىٰ عثمان بن طلحة حامل مفاتيح الكعبة، وأسامة ربيب الرسول وابن زيد الذي تبناه النبي أولًا ورباه صغيرًا، وبلال بن رباح الحبشي مؤذن الرسول، واستقبل النبي الجدار الذي يقابل الباب داخل الكعبة حتىٰ إذا كان بين الجدار وبينه قدر ثلاثة أذرع وقف وصلىٰ هناك، ثم دار في البيت، وكبَّر في نواحيه، ووحَّد الله، ثم فتح الباب، وقريش قد ملأت المسجد صفوفًا ينتظرون ماذا يصنع، فأخذ بعضادتي الباب وهم وقوف تحته، فقال:

- لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده..

يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ إِنَّ اللهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنكُمْ نَخْوَةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَعَظُّمَهَا بِالآبَاءِ، النَّاسُ مِنْ آدَمَ ، وَآدَمُ خُلِقَ مِنْ تُرَابٍ.. ثُمَّ تلا:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجُرات:١٣].

Scanned by CamScanner

ثم قال:

- يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ وَيَا أَهْلَ مَكَّةَ مَا تَرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ؟

قَالُوا:

- خَيْرًا.. أَخٌ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ.

- أَقُولُ كَمَا قَالَ يُوسُفُ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [يوسف:٩٢].

ثم أردف:

- اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ.

فَخَرَجُوا كَأَنَّمَا نُشِرُوا مِنَ الْقُبُورِ فَدَخَلُوا فِي الإِسْلَامِ، ولما حانت صلاة الظهر كانت الألوف المؤلفة تحيط بالرسول الأعظم، عند ذلك دعا الرسول بلالَ بن رباح، وأمره أن يصعد علىٰ ظهر الكعبة ليؤذن للصلاة، كما لو أنه يُلقِّن الجميع درسًا عمليًا يوم الانتصار، أن من كنتم تحتقرونه وتهينونه ارتقىٰ اليوم هذا المرتقىٰ الصعب، أنه بحق: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجُرات:١٣].

فرَّت دمعة من عين بلال، ربما هي الفرحة ربما الامتنان، تمسك بلال بأستار الكعبة، واحتضن الكعبة كما يحتضن الطفل أمه وتكبيرات المسلمين تحيطه من كل مكان، تسلق الجدار وأنفاسه تتسارع وكل ذراع يرفعها كان التكبير يرتفع

Scanned by CamScanner

معها أكثر كأنها معركة أخرىٰ يريد المسلمون فيها الغلبة، وصل إلىٰ حافة السطح، حركة واحدة انتصب بها جذعه فوق الكعبة فتطاير الحمام الذي كان عليها، وامتدت آلاف الأعناق تنظر إليه وتكبير المسلمين يحاصره، أما الذين في قلوبهم مرض فقد أخذ الحسد ينهش قلوبهم نهشًا، وجعلت الضغينة تمزق قلوبهم تمزيقًا.

رقىٰ بلال ظهر الكعبة أشرف مكان في مكة، مكان لم يكن أشرف سادات مكة وأعرقهم نسبًا قد وصله بقدمه، نظر إلىٰ مكة فزُويَت بين عينيه من هذا العلو، هناك سحلوه في الشارع، كان الصبية يرمونه بالحجارة وهم يضحكون.

- تراهم اليوم في الحشد الآن، يرونني؟ تراهم آمنوا بالذي كنت أعذب من أجله؟؟

هناك في الصحراء التي تلوح في الأفق، كان بلال يعذب، كانت الصخرة علىٰ صدره تكاد تكتم أنفاسه، وهو يقول أحد أحد، وها الرب الأحد جاء به من تحت الصخرة إلىٰ ظهر الكعبة، لقد هان علىٰ نفسه فعز علىٰ ربه، انطلق صوته كالرمح بالأذان، ورفع صوته كأشد ما يكون:

- الله أكبر.. الله أكبر

الله أكبر.. الله أكبر

Scanned by CamScanner

الأذان فوق البيت الذي كان يطوف به الصحابة خفية، الأذان في مكة وقد عاشوا ثلاث عشرة سنة يصلون متخفيين في جوٍ من الرعب والحذر..

- أشهد أن لا إله إلا الله..

أشهد أن لا إله إلا الله.

تُدوي أسماع قريش وقد كانوا يصمونها عن سماعها، كان النبي يعرض نفسه علىٰ القبائل مرارًا وتكرارًا، ويقول من يؤويني حتىٰ أبلغ دين ربي فإن قريش منعوني.. والآن هم يسمعونها..

- أشهد أن محمدًا رسول الله..

أشهد أن محمدًا رسول الله..

الكل شَهِدَ أيضًا طوعًا أو كرهًا، أن محمدًا هو الرسول الأعظم، مكة تدوي ببطحائها في العالمين، تقول من هنا يبدأ التاريخ.

(٥)

ما لبث أهل الطائف كثيرًا حتىٰ لانوا للإسلام، وأعدُّوا وفدًا منهم للقاء الرسول الكريم وإعلان دخولهم في دينه،

عند ذلك سُقط في يدي وحشي بن حرب، وأعيته المذاهب، أينطلق إلىٰ الشام أم اليمن أم إلىٰ بلد آخر دونهما، وفي غمرة همِّه هذا، إذ رَقَّ له رجلٌ ناصح، وقال:

- ويحك يا وحشي، إنَّ محمدًا -والله- ما يقتل أحدًا من الناس إذا دخل في دينه، وتشهد بشهادة الحق.

فما أن سمع مقالته حتىٰ خرج ميممًا وجهه شطر مدينة النبي ﷺ، فلما بلغها تحسس أمر الرسول فعرف أنه في المسجد.

❁❁❁

دخل وحشي علىٰ النبي ﷺ المسجد وهو جالس بين أصحابه يحدثهم، فمضىٰ نحوه في خفة وحذر حتىٰ صار واقفًا فوق رأسه فقال:

- أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله.

سمع النبي ﷺ الشهادتين فرفع بصره إليه، ودقق فيه النظر، يكاد لا يصدق مَرآه، فالتفت عنه وهو يقول:

- أوحشيٌ أنت؟

- نعم يا رسول الله.

- اقعد وحدثني كيف قتلت حمزة.

❁❁❁

Scanned by CamScanner

«ابعث إلىٰ هذا الرجُل الذي ظَهر بالحِجاز رجلين جَلْدَين من عندِك، ومُرهُما أن يأتياني به».

ما أن فرغ «باذان» من قراءة رسالة كسرىٰ هذه، إلا وبعث رجلين من جنوده للقبض علىٰ النبي ﷺ.

وعلىٰ الفور خرج الرجلان يُغِذَّان السّير حتّىٰ بلغا الطائف فوجدا رجالًا تُجارًا من قُريش، فسألاهُم عن مُحمّد، فقالوا: هو في يثْرِبَ، ثم مضىٰ التُجَّار إلىٰ مكة فَرِحين مُستبشرين، وجَعلوا يُهنِّئون قُريشًا ويقولون:

- قَرُّوا عينًا فإن كسرىٰ تصدّىٰ لمُحمد وكفاكُم شرَّهُ.

أما الرجلان فيَمَّما وجهيهِما شَطْر المدينة حتّىٰ إذا بلغاها لقِيا النبي ﷺ، ودفعا إليه رسالة «باذان» وقالا له:

- إن ملك الملوك كسرىٰ كتَبَ إلىٰ ملِكِنا «باذان» أن يبعث إليك من يأتيه بك، وقد أتيناك لتنطلق معنا إليه، فإن أجبتنا كلَّمنا كسرىٰ بما ينفعك ويكفُّ أذاهُ عنك، وإن أبيتَ فهُو من قد عَلِمتَ سطوتَهُ وبطشه وقدرته علىٰ إهلاكك وإهلاك قومك.

فتبسم الرسول عليه الصلاة والسلام وقال لهُما:

- ارجعا إلىٰ رحالِكُما اليوم وأتِيا غدًا.

❁❁❁

Scanned by CamScanner

غادر ثمامة مسجد رسول الله، وهو مشرق الوجه، منطلق الأسارير، فرحًا بعتقه من أسره، إلا أنه أراد أن يعتق نفسه من أسر أكبر، فمضىٰ حتىٰ بلغ نخلًا في حواشي المدينة فيه ماء، فأناخ راحلته عنده، وتطهر من مائه، فأحسن طهوره، علىٰ نحو ما رأىٰ من المسلمين في المسجد، الذي عاد أدراجه إليه متطهرًا وَضِيئًا، فما أن بلغه حتىٰ وقف علىٰ ملإٍ من المسلمين، وقال:

- أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

ثم اتجه إلىٰ الرسول ليقول:

- يا محمد، والله ما كان علىٰ ظهر الأرض وجه أبغض إليَّ من وجهك، فقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الوُجُوهِ إِلَيَّ، وَاللهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ، فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيَّ، وَاللهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ، فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ البِلَادِ إِلَيَّ.

ثم أردف ودمعة تسبق حروفه:

- لقد كنتُ أصبتُ في أصحابك دمًا؛ فما الذي تُوجِبُه عليَّ؟

- لا تَثْرِيبَ عليك يا ثُمامة؛ فإن الإسلام يجبُّ ما قبله.

قالها النبي مطمئنًا، فانبسطت أسارير ثُمامة لبشرىٰ الخير

التي زفها النبي ﷺ وكتبه الله له بإسلامه؛ وقال بحماسٍ كاد يقفز به عن الأرض:

- والله لأصيبنَّ من المشركين أضعاف ما أصبتُ من أصحابك، ولأضعنَّ نفسي وسيفي ومَنْ معي في نصرتك ونصرة دينك.

ثم قال:

- يا رسول الله، إن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة؛ فبماذا تأمرني أن أفعل؟

- امضِ لأداء عمرتك، ولكن على شرعة الله ورسوله.

وعلمه ما يقوم به من المناسك. فأحسن السماع ووعى البيان.

(٦)

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ﴾ [الأحزاب: ٤-٥].

Scanned by CamScanner

بهذه الآيات حَرَّمَ اللهُ التبني، وأمر المسلمين برد الأبناء إلىٰ أبائهم حِفظًا للأنساب، وإقلاعًا عن مسلك من مسالك الجاهلية، فاستجاب المسلمون إلىٰ أمر ربهم، وهبُّوا يبحثون عن أنساب من تبنَّوهم، ويتعرفون علىٰ أبائهم، فيدعونهم إليهم، حتَّىٰ رد النبي ﷺ نسب زيدٍ إلىٰ أبيه حارثة، وقد تبناه ﷺ وكان يُدعىٰ زيدًا بن محمد.

لكنَّ أبا حذيفة بن عُتبة لم يهتدِ إلىٰ والد متبنيه «سالم» علىٰ الرغم من كثرة البحث والتنقيب، ذلك أن سالمًا سُبيَ صغيرًا، وجُلب إلىٰ مكة، وبِيع في سوق النخَّاسين وهو في سنٍ لا تُمكِّنه من أن يعرف لنفسه أبًا أو أمًا، فأطلق الناس عليه: (سالم مولىٰ أبي حذيفة)، وظل يعرف بهذا الاسم ما امتدت به الحياة، غير أن العلاقة بين أبي حذيفة وسالم لم تكن علاقة مولىٰ بمولاه، بل كانت علاقة أخٍ بأخيه، بعد أن كانت علاقة أبٍ بابنه، فقد وحد الإسلام قلبيهما، وآخىٰ الإيمان بين نفسيهما، وغمر فؤاديهما حب الله ورسوله.

إلا أن النفوس البشرية قد يشوبها شيء، اشتدت غيرة أبي حذيفة علىٰ زوجته سهلة بنت سهيل، فكره دخول سالم عليها بعد تحريم التبني، إذ ليست هي محرمًا له أو هو محرم لها.

Scanned by CamScanner

والغيـرة علـىٰ الحرمـات مـن أخـص خـصائص القوامـة المنوطـة بالرجـال، فبهـا يُقَـوِّم أهلـه، ويحمـيهم مـن دوافـع الشهوة والغريزة، والـنفس الإنـسانية كالغـدير الراكـد لا يـزال صـافيًا رائقًـا حتـىٰ يـسقط فيـه حَجـرٌ فـإذا هـو مـستنقعٌ كَـدِر. والعِفة لون من ألـوان الـنفس لا جـوهر مـن جواهرهـا، وقلَّـما تثبت الألوان تحت أشعة الشمس المتساقطة.

والزوجة أعظم ما يكنزه الرجـل، فـلا يليـق بـه أن يجعلهـا مـضغة في الأفـواه، تلوكهـا الألـسنة، وتتقحمهـا الأعـين، وتجرحها الأفكار والخواطر. ذلك هو الحب.

إن الغيـرة بـين الـزوجين مهمـة مـن أجـل تطهيـر حديقـة الحياة الزوجية من الحشائش الضارة والأشواك المؤذية، وما تأتي به الريح من هشيم تذروه الرياح، فهي تـصرف احتيـاطي يحول دون سوء الظن، ويمنـع الوقـوع في الـشر. موجـة لطيفـة تهـز برفـق قـارب الحـب.. دفء ينبعـث مـن قلـب إلـىٰ قلـب ليشمل روحين امتزجتا.

أحست سهلة ذلك الدفء من زوجها أبي حذيفة، إلا أنها خشيت أن يتحـول إلـىٰ لهـب يمـزق بـين الأخـوين أواصـل محبتهم، فذهبت إلىٰ النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، إني أرىٰ في وجه أبي حذيفة الكراهية من دخول (سالم) عَليَّ.

Scanned by CamScanner

فما كان من النبي إلا أن خصها بخصيصة تحافظ علىٰ كيان هذا البيت أن يتهدم، فقال لها: «أَرْضِعِيهِ».

قالت متعجبة وقد أحست بتوقد وجنتيها تحت خمارها:

- إنه ذو لحية!

فقال مؤكدًا:

- أَرْضِعِيهِ خَمْسَ رَضَعَاتٍ

- كيف أرضعه وهو رجل كبير؟

قالتها بنبرة أعلىٰ نسبيًا، وقد بلغ التعجب مبلغه منها، فكيف ترضع رجلًا كبيرًا؟، وكيف تكشف له عن أخص فتنتها؟ وكيف له أن يمس عورتها؟

الحياء من مقتضيات الفطرة الأنثوية، والتستر سر بقاء الحياء، والحياء سر بقاء الجمال! وإنما جمال الوردة ما لم تقطف! فإذا قطفت فركتها الأيدي ففقدت بهاءها، فلا جمال بعد!

تبسم رسول الله ﷺ، وقال لها:

- قَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ رَجُلٌ كَبِيرٌ.

ففطنت سهلة إلىٰ أنه لا يشترط في الرضاع التقام الثدي، إنما المقصود شرب اللبن، فأخذت تحلب في إِنَاءٍ قَدْرَ رَضْعَةٍ

Scanned by CamScanner

كُلَّ يَوْمٍ فَيَشْرَبُهُ (سَالِمٌ) خَمْسَةَ أَيَّامٍ، فكان بمنزلة ولدها من الرضاعة يَدْخُلُ عَلَيْهَا بَعْدُ وَهِيَ حَاسِرٌ رُخْصَةً مِنْ رَسُولِ اللهِ لِسَهْلَةَ بِنْتِ سُهَيْلٍ وسالم وأبي حذيفة، فلقد اتحد المسكن وفي تعداده مشقةً عليهم.

وأتت سهلة بعدها إلىٰ النبي ﷺ، فقالت:

- ما رأيت في وجه أبي حذيفة شيئًا أكرهه بعد.

(٧)

كنتُ غلامًا رقيقًا لجبير بن مُطعِم، أحد سادات قريش، ولما تجهزت قريشٌ للقتال عند جبل أُحد، وأوشك الجيش علىٰ الرحيل، التفت إليَّ «جبير» وقال:

- هل لكَ يا أبا دَسمَةَ في أن تُنقذ نفسك من الرق؟

- ومن لي بذلك؟ (قلتُ له).

- أنا لكَ به.

- وكيف؟!

- إن قتلتَ حمزة بن عبد المطلب عمَّ محمد بعمِّي «طُعَيْمَةَ بن عَدي» فأنت عتيق.

وكان «طُعَيْمَةَ» عمُّه قد قُتلَ يوم بَدرٍ علىٰ يد حمزة.

قلتُ:

- ومن يضمن لي الوفاء بذلك؟

- من تشاء، ولأشهده علىٰ ذلك الناس جميعًا.

- أفعلُ وأنا لها.

قبلتُ الأمر، وكنتُ رجلًا حبشيًا أقذف بالحربة قذف الحبشة؛ فلا أخطئ شيئًا أرميه أبدًا، فأخذت حربتي ومضيتُ مع الجيش، وجعلتُ أمشي في مؤخرته قريبًا من النساء، فما كان لي أربٌ بقتال..

فلما بلغنا أُحدًا، والتقىٰ الجمعان، خرجتُ ألتمس حمزة وقد كنتُ أعرفه من قبل، ولم يكن حمزة يخفىٰ أعلىٰ أَحدٍ؛ لأنه كان يضع علىٰ رأسه ريشة نعامة ليدل الأقران عليه كما كان يفعل ذوو البأس من شجعان العرب.

وما هو إلا قليل حتىٰ رأيته يَهدِرُ بين الجموع كالجمل الأورق، وهو يَهِدُّ الناس بسيفه هدًا، فما يصمد أمامه أحد، ولا يثبت له شيء. فتحينت له غفلة، وجعلتُ أهز حربتي حتىٰ إذا اطمأننت إليها، دفعتُ بها نحوه، فوقعت في أسفل بطنه، وخرجت من بين رجليه.

ما لبث حمزة أن سقط والحربة في جسده، فتركتُها فيه حتىٰ أيقنتُ أنه مات، ثم أتيته وانتزعتها منه، وجاءت «هند

Scanned by CamScanner

بنت عتبة» ومَثَلت به ضمن القتلىٰ الذين مثلت النساء بهم، ورجعتُ إلىٰ الخيام، وقعدتُ فيها، إذ لم تكن لي حاجة بغيره، وإنما قتلته لأعتق.

سكت وحشي بعد أن قص علىٰ مسامع النبي ﷺ وأصحابه قصة قتل حمزة، فأشاح النبي عن وحشي بوجهه، واغرورقت عيناه بالدمع، وقال:

- ويحك يا وحشي، غيب وجهك عني فلا أرينك بعد اليوم.

❁❁❁

مضىٰ ثُمامة إلىٰ غايته، حتىٰ إذا بلغ بطن مكة وقف يجلل بصوته العالي قائلًا:

- لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك.

سمعت قريش صوت التَّلبية وكلمات التوحيد، ولأول مرة علىٰ ظهر الأرض يدخل مسلم مكة ملبِّيًا؛ فهبَّت مغضبةً مذعورة، استلَّت السيوف من الأغماد، واتَّجهت نحو الصوت لتبطش بهذا الرجل الذي اقتحم عليها عرينها! ولمَّا أقبل القوم علىٰ ثُمامة رفع صوته بالتلبية مرة أخرىٰ وهو ينظر إليهم بكل كبرياءٍ وعزَّة؛ فهمَّ فتًىٰ من فتيان قريش أن يرديَه

Scanned by CamScanner

بسهمٍ؛ فأخذوا علىٰ يديه وقالوا: ويحكَ! أتعلم مَنْ هذا؟

إنه ثُمامة بن أُثال ملك اليمامة، والله إن أصبتموه بسوءٍ قطع قومه عنكم النِّيرَة وأماتونا جوعًا.

ثم أقبل القوم علىٰ ثُمامة بعد أن أعادوا السيوف إلىٰ أغمادها وقالوا:

- ما بك يا ثُمامة؟

أَصَبَوْتَ وتركت دينك ودين آبائك؟!

- ما صَبَوْتُ، ولكنِّي تَبِعْتُ خيرَ دينٍ؛ اتَّبعتُ دينَ محمدٍ ﷺ.

ثم أردف في كل عزٍّ وافتخار:

- أقسمُ بربِّ هذا البيت، إنه لا يصير لكم بعد عودتي إلىٰ اليمامة حبةً من قمحها ولا شيء من خيراتها -حتىٰ تتَّبعوا دينَ محمدٍ عن آخركم.

❁❁❁

اعتمر ثُمامة بن أُثال علىٰ مرأىٰ من قريش كما أمره عليه الصلاة والسلام أن يعتمر، وذبح تقرُّبًا إلىٰ الله لا إلىٰ الأنصاب والأصنام، ومضىٰ إلىٰ بلاده في بني حنيفة من أعالي نجد؛ فأمر قومه أن يحبسوا النِّيرَة عن قريش، وأن

يقاطعوا قريشًا حتىٰ ترضخ وتعتذر للنبي ﷺ فاستجابوا له، وأسلموا معه، وأطاعوا أمره، فقطعوا خيراتهم عن أهل مكة.

أخذت المقاطعة والحصار الذي فرضه ثُمامة علىٰ قريش يشتد شيئًا فشيئًا حتىٰ ارتفعت الأسعار علىٰ قريش، وفشا فيهم الجوع، واشتد فيهم الخوف؛ حتىٰ خافوا علىٰ أنفسهم وأبنائهم أن يهلكوا جوعًا!!

عند ذلك خضعوا وذلُّوا وكتبوا للرسول ﷺ يتوسَّلون ويقولون: إن عهدنا بك إنك تصل الرَّحم وتحضُّ علىٰ ذلك، وها أنت قد قطعت أرحامنا؛ فقتلت الآباء بالسَّيف، وأَمَتَّ الأبناء بالجوع، وإن ثُمامة بن أُثال قد قطع عنا نِيرتنا وأضرَّ بنا، فإن رأيت أن تكتب إليه أن يبعث إلينا بما نحتاج إليه فافعل.

فما كان منه عليه الصلاة والسلام إلاَّ أن كتب إلىٰ ثُمامة بأن يطلق إليهم نِيرَتهم، فأطلقها.

(٨)

أصبح رسولا «باذان» عن «كسرىٰ» في يوم مشرق مزهر من أيام المدينة المطهرة، يوم يشي بشيء مختلف عن

Scanned by CamScanner

الأيام السابقة، تحرك الرجلان وغَدَوَا علىٰ النبي صلوات الله عليه، وقالا:

- هل أعدَدْت نفسك للمُضِيِّ معنا للقَاءِ كِسرىٰ؟

- لن تلقيا كسرىٰ بعد اليوم، فلقد قتله الله؛ حيث سلَّط الله عليه ابنه «شِيروَيه» في ليلة كذا من شهر كذا.

فحَدَّقا في وجه النبي ﷺ، وبَدَت الدهشة علىٰ وجهيهما، وقالا:

- أتدري ما تقول؟! أنكتب بذلك لباذان؟!

- نعم، وقولا له: إن ديني سيبلغ ما بلغ إليه مُلكُ كسرىٰ، وأنَّك إن أسلمتَ أعطيتُك ما تحْتَ يَديْك، وملَّكْتُك علىٰ قومك.

❁❁❁

خرج الرجلان من عند الرسول، وقدِما علىٰ «باذان» وأخبراه الخبر، فقال لئن كان ما قاله محمد فهو نبي، وإن لم يكن كذلك فسنرىٰ فيه رأيًا.

فلم يلبث أن قدم علىٰ «باذان» كتاب «شِيروَيه» وفيه يقول: «أما بعد، فقد قتلتُ كسرىٰ، ولم أقتله إلا انتقامًا لقومنا، فقد استحل قتل أشرافهم وسبي نِسائِهِم وانتهاب أموالِهِم، فإذا جاءك كتابي هذا فخذ لي الطَّاعة ممَّن عندك».

Scanned by CamScanner

فما إن قرأ «باذان» كتابَ «شِيروَيه» حتَّىٰ طرَحه جانبًا وأعلن دخوله في الإسلام، وأسلم من كان معه من الفُرس في بلاد اليمن.

❁❁❁

أقام وفد اليمن أيّامًا، وأخذوا يسمعون حديث النبي ويتعلمون منه، وكان من بينهم «فَيْرُوزَ الدَّيْلَمِيِّ» الذي أسلم علىٰ يد «وَبْرُ بْنُ يُحَنِّسَ»، وكان فيروز متزوجًا بأختين في الوقت ذاته، فسأل النبي عن ذلك فقال ﷺ:

- طَلِّقْ أَيَّتُهُمَا شِئْتَ.

فسأل فيروز سؤلًا آخر، قائلًا:

- يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا أَصْحَابُ أَعْنَابٍ وَكَرْمٍ، وَقَدْ نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ، فَمَا نَصْنَعُ بِهَا؟

- تَتَّخِذُونَهُ زَبِيبًا

- فَنَصْنَعُ بِالزَّبِيبِ مَاذَا؟

- تَنْقَعُونَهُ عَلَىٰ غَدَائِكُمْ، وَتَشْرَبُونَهُ عَلَىٰ عَشَائِكُمْ، وَتَنْقَعُونَهُ عَلَىٰ عَشَائِكُمْ، وَتَشْرَبُونَهُ عَلَىٰ غَدَائِكُمْ.

- يَا رَسُولَ اللهِ، نَحْنُ مَنْ قَدْ عَلِمْتَ، وَنَحْنُ نُزُولٌ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ مَنْ قَدْ عَلِمْتَ، فَمَنْ وَلِيُّنَا؟

- اللهُ وَرَسُولُهُ.

Scanned by CamScanner

- حَسْبِي يَا رَسُولَ اللهِ.

فقال القوم:

- حَسْبُنَا رَضِينَا.

(٩)

أناخ وفد بني حَنِيفة جِمَالَه في أطراف مدينة رسول الله، وقد جاءوا يبايعونه بعدما أسلموا مع ملكهم «ثُمامة بن أثال»، وخَلَّف الوفد على رحاله رُجلًا يُدعى «مسيلمة بن حبيب» ومضى الوفد إلى النبي ﷺ وأعلن إسلامه، وإسلام قومه بين يديه، فأكرم الرسول ﷺ وفادتهم، وأمر لكل منهم بعطية، وكان من عادته أنه إذا جاء قوم يبايعونه على الإسلام أن يعطيهم عطاءً، حتى يؤلف قلوبهم، فأعطاهم، فَقَالُوا:

- يا رسول الله إنا قد خَلَفنا صاحبًا لنا في رِحالِنا وفي رِكابِنا يحْفظها لنا.

فأمر له رسول الله بمثل ما أمر به للقوم، وقال:

- أَمَا إِنّهُ لَيْسَ بِشَرّكُمْ مَكَانًا.

وذلك لحفظه ضيعة أصحابه، ومكثه على متاعهم، وإبلهم خارج المدينة يقوم بحراستها.

Scanned by CamScanner

كان مسيلمة يكبر النبي ﷺ في العمر، قصير الطول شديد الصفرة، أنفه منخفض من عند القصبة مع ارتفاع قليل في طرفه، ظل في حواشي المدينة وحيدًا، وأثناء وحدته مع الإبل والرحال كان يرىٰ رجالًا يكاد أن يشع من وجوههم النور، قد نزلت بهم سكينة عجيبة، كأنما قد طرحوا عن كواهلهم كل متاعب الحياة.

كان مشدوهًا مما يرىٰ مِن طاعة واستجابة الصحابة وحبهم للنبي الذي لا يعصون له أمرًا، فأطرق يفكر في ذلك الرجل الذي طور حياة المؤمنين برسالته، فاستشعر عقارب الغيرة تنهش فؤاده وتمنىٰ لو كان هو صاحب الرسالة.

راحت الأفكار تنهال علىٰ رأسه شريرة من نسج شيطان رجيم، وقام في نفسه سؤال:

لماذا يذاع اسم محمد بن عبد الله في قبائل العرب بينما يظل هو مجهولًا في اليمامة لا يكاد اسمه يتجاوز القبيلة التي نشأ فيها؟؟

أطلق لخياله العنان ليرىٰ نفسه في قومه نبيًا بدلًا من محمد، وأخذ يفكر فيما يحلل وفيما يُحرم.. أن يكون له وحي وقرآن وصحابة وأنصار وأتباع.

إنَّ محمدًا أصبح في جزيرة العرب كالطود الأشم، وإنه

لمن الجنون أن يزعزع مجده بعد أن توطدت أركانه، فلماذا لا يشاركه النبوة فيكون له مثل ما لابن عبد الله من احترامٍ وتوقير وذيوع صيتٍ؟

❁❁❁

لم يطل مُكث وفد اليمنين كثيرًا، فاعتزموا الرحيل، فقيل لهم:

- ما يُعجّلكم؟

- نرجع إلىٰ مَن وراءنا فنُخبرهم برُؤيتنا رسول الله ﷺ وكلامنا إيّاه، وما ردّ علينا.

ثمّ جاءوا إلىٰ النبي ﷺ يودِّعونه، فأرسل إليهم بلالًا، فأجازهم بأرفع ما كان يُجيز به الوُفود، ثم قال:

- هل بقي منكم أحد؟

- نعم، غلامٌ خلَّفْناه علىٰ رِحالنا، هو أحدثُنا سِنًّا.

- أرسلوه إليَّ.

فلمّا رجعوا إلىٰ رحالهم، قالوا للغلام: «انطلق إلىٰ رسول الله ﷺ، فاقْضِ حاجتك منه، فإنّا قد قضيْنا حوائجنا منه وودَّعْناه»، فأقبلَ الغلام حتىٰ أتىٰ النبي ﷺ، فقال:

- يا رسول الله، إنِّي امرؤٌ من الرّهط الذين أتَوْك آنفًا، فقد

Scanned by CamScanner

قضَيْتَ حوائجهم، فاقْض حاجتي يا رسول الله؟

- وما حاجتك؟

- إنَّ حاجتي ليْسَت كحاجة أصحابي، وإن كانوا قد قدموا راغبين في الإسلام وساقوا ما ساقوا من صدقاتهم، وإني والله يا رسول الله ما أقدمني من بلادي إلا أن تسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يغفر لي ويرحمني، وأن يجعل غِنَايَ في قلبي.

فأقبل النبي علىٰ الغلام وقال:

- اللهمّ اغفر له وارحمهُ، واجعل غِناه في قلبه.

ثمّ أمرَ له بمِثل ما أمر لرجلٍ من أصحابه، فانطلقوا راجعين إلىٰ أهلهم.

(١٠)

عاد وفد الحنيفين إلىٰ مسيلمة واتحفوه بهدية رسول الله، وأخبروه بقول الرسول: «**أَمَا إِنّهُ لَيْسَ بِشَرّكُمْ مَكَانًا**».

فاتخذها ذريعة لأفكاره، فجعل يقول: إن جعل لي محمد الأمر من بعده تبعته.

وأتىٰ الوفد بمسيلمة إلىٰ رسول الله ﷺ ليبايع النبي ﷺ، وكان رسول الله ﷺ جالسًا في أصحابه ومعه عسيب من

Scanned by CamScanner

سعف النخل في رأسه خوصات، فلما انتهىٰ إلىٰ رسول الله ﷺ وهم يسترونه بالثياب خشية أمره الذي تكلم فيه، أقبل رسول الله علىٰ مسيلمة إقبال المؤلف للقلوب الحريص علىٰ الناس، وقام معه ثابت بن قيس، فقال له مسيلمة بتبجح:

- إن شئت خلينا بينك وبين الأمر ثم جعلناه لنا بعدك!

أجابه النبي ﷺ في غضب:

- لو سألتني هذا العسيب الذي في يدي ما أعطيتك! ولن تعدو أمر الله فيك.

ثم قال محذرًا:

- ولئن أدبرت ليعقرنك الله، وإني لأراك الذي أُريت فيه ما أريت وهذا «ثابت» يجيبك عني..

تقدم «ثابت بن قيس» وقد انصرف النبي ﷺ مغضبًا، وكان ثابت خطيبًا مفوهًا يخطب لرسول الله في الوفود، رائعَ البيانِ، حاضرَ البديهةِ، جهير الصوت، إذا نَطَقَ بَزَّ القائلين، وإذا خَطَبَ أسرَ السامعين، وكانت الكلمات تخرج من فمه قوية، صادعة، جامعة، بديعة، فأخذ يعظ مسيلمة والوفد المصاحب له، فقال:

«الحمد لله الذي السموات والأرض خلقه، قضىٰ فيهن

Scanned by CamScanner

أمره، ووسع كرسيه علمه، ولم يك شيء قط إلا من فضله، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكًا، واصطفىٰ من خير خلقه رسولًا، أكرمه نسبًا، وأصدقه حديثًا، وأفضله حَسَبًا، فأنزل عليه كتابه وَائْتَمَنَهُ علىٰ خلقه، فكان خيرة الله من العالمين، ثم دعا الناس إلىٰ الإيمان به، فآمن برسول الله المهاجرون من قومه وذوي رحمه، أكرم الناس حسبًا، وأحسن الناس وجوهًا، وخير الناس فِعالًا.

ثم كان أول الخلق إجابة، واستجاب لله حين دعاه رسول الله ﷺ نحن، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله، نقاتل الناس حتىٰ يؤمنوا بالله، فمن آمن بالله ورسوله منع منا ماله ودمه، ومن كفر جاهدناه في الله أبدًا، وكان قتله علينا يسيرًا»[1].

ارتعدت فرائص مسيلمة، ولملم أمره وطواه بين جوانحه، وتجهز الوفد للرحيل، وخلَّفوا «الرجَّال بن عنفوة» ليتعلم القرآن، ويسمع من رسول الله، وكان فيه من الخشوع ولزوم الخير الأمر العجيب.

---

(١) لم تذكر الروايات التاريخية رد ثابت بن قيس علىٰ مسيلمة، إلا أن هذه الخطبة وردت في رَدِه علىٰ عُطَارِد بْنُ حَاجِبٍ، في وَفْدِ بَنِي تَمِيمٍ. «سيرة ابن هشام» (٢/٥٦٢)، وهي قريبة المعنىٰ لما نتوقعه في الرد علىٰ مسيلمة.

Scanned by CamScanner

(١١)

«سَيَأْتِيَكُمْ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ مُؤْمِنًا مُهَاجِرًا، فَلَا تَسُبُّوا أَبَاهُ، فَإِنَّ سَبَّ الْمَيِّتِ يُؤْذِي الْحَيَّ، وَلَا يَبْلُغُ الْمَيِّتَ».

بهذه الكلمات استشرف النبي ﷺ قدوم عكرمة عليه، فقد دنا من مكة بعد أن كان هاربًا من قبضة النبي ﷺ وصحابته، يوم فتح مكة، فقد عادىٰ الرسول أشد العداء، وأذىٰ أصحابه أفدح الإيذاء ومن يومها ظل عكرمة هاربًا متخفيًا إلىٰ أن أسلمت أم حكيم زوجه، وجاءت إلىٰ النبي ﷺ تشفع في زوجها عنده، فقالت:

- يا رسول الله قد هرب منك عكرمة خوفًا أن تقتله، فأمنه أمنك الله.

- هو آمن.

لم يمهلها قليل وقت، وبسلاسة عفا عنه، فخرجت من ساعتها في طلبه حتىٰ أدركته عند ساحل البحر، الذي يذكرها موجه بقوة النبي وأصحابه، وذكرت لزوجها اتساع قلب النبي الرحيم الذي هو أوسع من عرض هذا البحر الهائل.

وما زالت به تؤمِّنه وتطمئنه حتىٰ عاد معها.

Scanned by CamScanner

وصل عكرمة وزوجه إلىٰ حيث يجلس رسول الله، فلمَّا رآه النبي ﷺ وثب إليه من غير رداء فرحًا به.

فلما جلس وقف عكرمة بين يديه وقال:

- يا محمد، إن أمَّ حكيم أخبرتني أنك أمنتني.

- صدقت، فأنت آمن.

- إلام تدعو يا محمد؟

- أدعوك إلىٰ أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأني عبد الله ورسوله، وأن تقيم الصلاة، وأن تؤتي الزكاة، وأن تحج البيت وتصوم رمضان.

- والله ما دعوتَ إلا إلىٰ الحق، وما أمرتَ إلا بخير.

لأول مرة يسمح عكرمة لأذنيه أن تسمع من محمد لا عنه، فقد دُفع بحكم زعامة أبيه إلىٰ مناوأة النبي ﷺ ومحاربته، واليوم ينفذ النور النبوي إلىٰ قلبه.

تابع عكرمة حديثه:

- قد كنتَ فينا والله أصدقنا حديثًا، وأبرنا برًا.

ثم بسط يده، وقال:

- أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك عبده ورسوله.

Scanned by CamScanner

ثم قال:

- إني أسألك أن تستغفر الله لي كل عداوة عاديتكها، أو مسيرًا وضعتُ فيه، أو مقام لقيتك فيه، أو كلام قلته في وجهك أو غيبتك.

فرفع النبي ﷺ بصره إلىٰ السماء قائلًا:

- اللهم اغفر له كل عداوة عادانيها، وكل مسير سار فيه إلىٰ موضع يريد به إطفاء نورك، واغفر له ما نال من عرضي في وجهي أو وأنا غائب عنه.

تهلل وجه عكرمة بِشرًا، وقال:

- أما والله يا رسول الله، لا أدع نفقة أنفقتها في صد عن سبيل الله إلا أنفقت ضعفها في سبيل الله، ولا قتالًا قاتلته صدًا عن سبيل الله إلا قاتلت ضعفه في سبيل الله.

(١٢)

فوق جبل عالٍ من جبال المدينة الشاهقة، نظر النبي ﷺ نظرة واسعة متفحصة إلىٰ المدينة الشريفة فأوغل النظر، وأصحابه ينتظرونه لعله يستنشق النسيم المقترب من السحاب، أو يتفكر في ملكوت السماوات والأرض، أو يناجي ربه

ويدعوه، لكن طال الانتظار، كما طال صمته واتضح شرود فكره، وبعد لحظات التفت إليهم، وقال:

- هل ترون ما أرىٰ؟

لقد تحيروا في جوابه: أهي البيوت العامرة؟

أم الجبال الشاهقة؟

أم النسيم المعنبر؟

أم الصبح المزهر؟

إنها المدينة الفاضلة التي بناها النبي بيديه، ليت أفلاطون عاش ليرىٰ علىٰ أرض الواقع ما هو أفضل من مدينته التي بناها في مخيلته وأحلامه، وسطرها في كتبه وأقواله!

تحولت يثرب الأرض الخربة إلىٰ طيبة، لم تكن مدينة فاضلة فحسب، بل مدينة منورة.. وأي نور هذا وقد دخلها النور المبين.. ونزل بها جبريل الأمين.. وتُليت فيها أيات الذكر الحكيم!!

أي جواب يجيبونه وهم لا يدرون مقصده، وهم يتخوفون من مخالفته، فقالوا بعد أن حار الفكر:

- لا يا رسول الله؟

فأجابهم في أسىٰ:

Scanned by CamScanner

- إني لأرىٰ الفتن تقعُ خِلال بُيوتكم كمواقع القطر!

ثم أشار جهة المشرق، وقال:

- ألا إن الفتنة ها هُنا، من حيث يطلع قَرنُ الشيطان!

فأخذ يتعوذ بالله من فتنة المشرق، فقالوا له: فكيف فتنة المغرب؟

- تلك أعظم وأطَم، تلك أعظم وأطَم.

لقد جاوزت نظرات النبي عالم الشهادة، فتغلغلت إلىٰ عالم الغيب، ورأت مستقبلًا مظلمًا كفتنه المظلمة التي هي أشد ظلامًا من الليل البهيم.

❁❁❁

لم يكد يبلغ وفد بني حنيفة منازله في نجدٍ، حتىٰ ارتد مسيلمة بن حبيب عن الإسلام، وقام في الناس يُعلن أنه نبيٌّ أرسله الله إلىٰ بني حنيفة كما أرسل محمدًا إلىٰ قريش، فاستخفه قومه وضحكوا منه وأظهروا شتمه وعيبه وتصغيره، فقال لوفده الذين كانوا معه:

- ألم يقل لكم حين ذَكَرْتُمُونِي له: أما إنه ليس بشركم مكانًا؟

ما ذاك إلا لما كان يعلم أني قد أشركت في الأمر معه.

Scanned by CamScanner

وعلىٰ مر الأيام طفق بنو حنيفة يلتفون حول مسيلمة مدفوعون إلىٰ ذلك بدوافع شتىٰ، كان أهمها العصبية للقبيلة، حتىٰ إن رجلًا من رجالهم قال:

- أشهد أن محمدًا لصادق، وأن مسيلمة لكذاب، ولكن كذاب ربيعة أحب إليَّ من صادق مُضر!

❁❁❁

ساح مسيلمة في أسواق العرب حتىٰ تعلم من الحواة والمشعوذين طرائق يستجلب بها أنظار الناس كي يؤمنوا بنبوته المزعومة فكان يضع البيضة في الخل مدة طويلة فتصبح كالعلكة تمط ويخدع بها أفهام الأعراب الحمقىٰ بأن يدخلها في القارورة الزجاجية، وصنع طائرات ورقية أو كما كانت تسمىٰ بـ «راية الشادن» وزعم أنها الملائكة تنزل عليه وذلك بأن أتىٰ بها في ليلة ظلماء عاصفة ووضع فيها سلاسل فأرتاع الناس وزعم أن من نظر إليها خطف بصره.

وبدأ الجُهال من الأعراب يتجمعون حوله، مفتونون بألاعيبه وحيله، موهومون بما قرر من أن النبي ﷺ أشركه في النبوة.

❁❁❁

قرر الرسول ﷺ أن يرسل إلىٰ بني حنيفة مَن يردهم إلىٰ

Scanned by CamScanner

الإسلام، ويُعلمهم، فاختار رجلًا منهم؛ حتىٰ يكون أقرب للسان قومه، ولعلهم يستجيبون له أكثر من غيره، هو «الرجَّال بن عنفوة»، وكان قد حفظ من القرآن بعضه، وكان من أهل سورة البقرة، فأرسله حتىٰ يُعلم بني حنيفة الإسلام، ويحذرهم من اتباع مسيلمة، فأتىٰ «الرجَّال» إلىٰ مسيلمة الكذاب في خيمته، وجلس معه طويلًا، فاجتمع بنو حنيفة حول الخيمة؛ ليعرفوا ما الذي يسفر عنه اجتماع مبعوث محمد ﷺ إلىٰ مسيلمة؟

وهل مسيلمة علىٰ الحق؟

وهل أُشرك في الأمر مع محمد ﷺ كما يقول؟

أم أن محمدًا قد بعث من يُكذِّبه؟

اجتمع القوم، مسلمهم ومرتدهم حول خيمة مسيلمة، وطال الحديث بين مسيلمة الكذاب وبين الرجَّال، ثم خرج الرجَّال، فسأله القوم: ما يقول محمد رسول الله عن مسيلمة؟

وكان القوم يعتقدون أن محمدًا رسول الله حتىٰ المرتد منهم، ولكنهم يزعمون أن مسيلمة أشرك في الأمر معه، حتىٰ إنهم ما زالوا يصلون الصلوات، فإذا بالرجَّال يقول:

- لقد أُشرك مسيلمة في الأمر مع محمد.

وارتد الرجَّال عن دين الإسلام، فكان أشد فتنة علىٰ

Scanned by CamScanner

الناس من مسيلمة نفسه.

وعلىٰ الرغم من حزن الصحابة لارتداد الرجَّال بن عنفوة فإن أبا هريرة تنفس الصعداء فور سماع خبر ارتداده، وأخذ يحدث المسلمين ويقول:

- جلستُ مع النبي ﷺ في رهط معنا الرجَّال بن عنفوة، فقال: «**إن فيكم لرجلًا ضرسه في النار أعظم من أُحد**». فهلك القوم وبقيت أنا والرجَّال فكنت متخوفًا لها، حتىٰ خرج الرجَّال مع مسيلمة، فشهد له بالنبوة.

❁❁❁

مات «باذان» عامل النبي علىٰ اليمن، وكان النُفوذ في «اليمن» إذ ذاك (للأبناء)، فولىٰ رسول الله ابْنه «شهر بن باذان» علىٰ صنعاء وأعمالها فَقَط، وفرق رسول الله علىٰ بقية ممالك اليمن أمراءه، وكان «معاذ بن جبل» معلمًا يتنقل في عمالة كل عامل باليمن وحضرموت.

وكان يعيشُ في كهف جُنَّان في اليمن، كاهنًا مُشعوذًا اسمه «عبهلة بن كعب»، كان أسود النفس مستطير الشر، شديد القوة، ضخم الهيكل. كان إلىٰ ذلك فصيحًا يخلُبُ الألباب ببيانه، داهيةً قادرًا علىٰ اللعب بعقول العامة بأباطيله، وإغراء الخاصة بالمال والجاه والمناصب، وكان لا يظهر للناس إلا

Scanned by CamScanner

مقنعًا لإحاطة نفسه بهالةٍ من الغموض والهيبة، فأطلقوا عليه «الأسود العنسي».

أخذ الأسود يدَّعِي لنفسه النبوة، وكان مما ساعده على خداع الناس واستمالتهم إليه دهاؤه الذي لا حدود له، فقد زعم لأتباعه أن له مَلَكًا ينزل عليه بالوحي وينبئه بالمُغيبات، وكان يؤكد هذا الزعم بجواسيسه الذين بثهم في كل مكان، ليقفوا له على أخبار الناس، ويَنفذوا إلى أسرارهم، ويتعرفوا إلى مشكلاتهم ويكشفوا عما يتلجلج في صدورهم من الأماني والآمال ثم يأتوه بها سِرًا.

فكان يواجه كل ذي حاجة بحاجته، ويبدأ كل صاحب مشكلة بمشكلته، ويأتي لأتباعه من العجائب والغرائب ما يُذهل عقولهم ويحير أفهامهم.

❁❁❁

راح مسيلمة يركب الصعب والذلول في تقوية أمره، ويعتضد بالرجَّل بن عنفوة فينصره ويذب عنه ويصدق أكاذيبه.

مسيلمة يعصر ذهنه فيرى أن مشاركة محمد بن عبد الله في نبوته خير له من أن يكذب محمدًا ويدعي النبوة وحده.

والرجَّال بن عنفوة ينفس على أبي بكر وعمر وصحابة

رسول الله مكانهم من الإسلام، فغروره يصور له أنه أفضل من هؤلاء، فتنهش في قلبه الغيرة.

وكان يقول لمن يسأله عن تغير أمره:

- كبشان انتطحا فأحبهما إلينا كبشُنا.

وعرف مسيلمة بجبلته أن الناس يحبون الشهوات، فرأىٰ أنه لو أطلق للنفوس الفاجرة حريتها فسيجد منها الأنصار، ولو فتح الأبواب التي أغلقها محمد بن عبد الله لتدفق منها أناس يضيقون بالفضيلة وتقيد حرية النفس والأموال لينضموا إلىٰ دينه يدافعون عنه حتىٰ الموت.

وابتنىٰ بيتًا حرمًا، وأخذ الناس به، يُنافس به البيت الحرام في مكَّة.

قوي ساعد مسيلمة وغلظ أمره، وبلغ من اغتراره بنفسه أن تجرأ وكتب إلىٰ رسول الله كتابًا جاء فيه.

«مِنْ مُسَيْلِمَةَ رَسُولِ اللهِ، إِلَىٰ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ:

سَلَامٌ عَلَيْكَ..

أَمَّا بَعْدُ،

فَإِنِّي قَدْ أُشْرِكْتُ فِي الْأَمْرِ مَعَكَ، وَإِنَّ لَنَا نِصْفَ الْأَرْضِ، وَلِقُرَيْشٍ نِصْفَ الْأَرْضِ، وَلَكِنَّ قُرَيْشًا قَوْمٌ يَعْتَدُونَ».

Scanned by CamScanner

وبعث الكتاب مع رجلين من أتباعه، فلما قُرئ الكتاب الهزلي هذا على النبي ﷺ، نظر للرجلين قائلًا:

- فَمَا تَقُولَانِ أَنْتُمَا؟

- نَقُولُ كَمَا قَالَ.

- أَمَا وَاللهِ لَوْلَا أَنَّ الرُّسُلَ لَا تُقْتَلُ لَضَرَبْتُ أَعْنَاقَكُمَا.

ثُمَّ أمر النبي ﷺ أُبَيَّ بن كعب أن يكتب إِلَىٰ مُسَيْلِمَةَ رسالة يقول فيها:

«بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ، إِلَىٰ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ..

السَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ.

أَمَّا بَعْدُ،

فَإِنَّ الْأَرْضَ للهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ».

وبعث الرسالة مع الرجلين.

(١٤)

كانت الشمس تصب سيلًا من شعاعها الذهبي المتوهج علىٰ بطاح مكة وجبالها السوداء والرياح تلفح الوجوه بحرارة

Scanned by CamScanner

الصيف المُتَّقدة، في يوم جمعة لم يشهد العالم مثله قط، الأرض تتشح بالبياض من كل اتجاه وكأنه القطن المندوف، والتناغم يحيط بالحياة من كل مكان، رب واحد تتجه إليه هذه القلوب بآملها وآلامها، نداءٌ واحد، هو نداء الإيمان الذي لا يختلف وإن اختلفت الألسن، وتباينت اللغات، غاية واحدة تصطف لها هذه الجموع في هذا اليوم المشهود، مكان واحد يضم هذا الشتات من آفاق الدنيا ساعتها.. طُويَّ الزمان واختصر الدهر وحضر التاريخ واشرأبت الأيام وأنصتت الدنيا وأذعن العالم، والتقت الأرض مع السماء، والفناء مع البقاء، حيث تساوِي الرءوس وتخفيض الجماجم، وإزهاق النَّعِرات، وقتل الكبرياء وذبح الشرك، لا تقديس ولا تعظيم إلا لواحد، ولا رهبة ولا خوف ولا وجل إلا من واحد، ولا رغبة ولا مسألة ولا صمود إلا لواحد، ولا انتصار ولا استعلاء إلا بواحد، ترتج عرفات بدعوات الصحابة الميامين، وتدوي الأودية بنغمات الموحدين، وآهات الأوابين، في أعظم وأجل وأنقىٰ موقف تشهده عرفات، موكب نوراني يتقدمه محمد بن عبد الله مُحْرِمًا يتهلل وجهه سرورًا، ويمتليء قلبه رضًا، يتقدم الرسول في إحرامه الطاهر وقلبه الخاشع، وخلقه المتواضع، يتقدم إلىٰ حيث ذكريات جده إبراهيم، أبي الحنفية ومُرسِي

دعـائم هـذا البيـت العظـيم، جنبـات الحـرم تـدوي بالتهليـل والتكبيـر، كلمـات التلبيـة وعبـارات التوحيـد تمـلأ المكـان وتطرب الزمان، وتتصاعد في إخلاصـها المتنـاهي إلىٰ الواحـد الـديان. فهـي نـشيدُ الأحـرار، وأغنيـة الكفـاح، وحـداء الرحلـة وهتاف الخالدين، وأرجوزة الموسـم، حـروف صـادقة لحَّنتهـا حناجر الشعث الغبر، ترجمتُها: سمعنا وأطعنا وأتينا وحضرنا.

- لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك.

مـشهد يهـيج في المـآقي الـدموع، و يـوهن القلـب الـسليم فكيف بالقلب المصدوع، فحدث حينها عن عبرات سواكب، و دموع تجري فيها المراكب، أكثر مـن مئـة ألـف شـخص، إذا نَظَرَ الناظر إِلَىٰ مَدِّ بَصَرِه يجـد النـاس ملء عينيه بين رَاكِبٍ وَمَـاشٍ، النبـي بيـنهم أعلـىٰ الجبـل علـىٰ ناقتـه القـصواء، بـدأ صوته يسري إليهم، وهو يخطب:

- إنَّ دماءكم وأموالكمْ حرام عليكم كحرمة يـومكم هـذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا كلُّ شـيءٍ مـن أمـر الجاهليـة تحت قدميَّ هاتين موضـوع، ودمـاءُ الجاهليـة موضـوعة، وإن أولَّ دم أضـعُ مـن دمائنـا دمُ ابـنِ ربيعـةَ بـنِ الحـارثِ كـان مُسْتَرْضعًا في بني سعدٍ فقتلته هذيل، وربـا الجاهليـة موضـوع،

Scanned by CamScanner

وأول ربًا أضعُ ربانا، ربا العباسِ بنِ عبد المطلب، فإنه موضوع كلُّه.

لم يكن هناك مكبرات للصوت ولكن نسمات الريح كانت بإذن ربها تتبختر فرحًا وهي تطير بعذوبة الكلمات النبوية فتلامس بها جميع الأسماع وتطرق بها القلوب المتعطشة، أرسل بصره إلىٰ الأفق، وهو يواصل خطابه:

- اتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهنَّ بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فُرُشَكم أحدًا تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربًا غير مبرِّح، ولهن عليكم رزقهُنَّ وكسوتهن بالمعروف.

الجميع آذان صاغية لكلماته التي كانت بقدرة الله تصل إلىٰ كل قلب قبل آذانهم رغم ضخامة العدد وجلال الموقف، فإذا به يقول:

- وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتابَ الله، وأنتم تسألون عني، فما أنتم قائلون؟

فإذا بأصوات فزعة تحمل كلمات صلدة، تخرج من حناجر تلك الأفواج في آنٍ واحد:

- نشهدُ أنك قد بلَّغْتَ رسالاتِ ربكَ وأدَّيْتَ، ونصحتَ لأُمَّتِكَ، وقضيتَ الذي عليك.

Scanned by CamScanner

- اللهم اشهد، اللهم اشهد.

قالها وهو يرفع إصبعه السبابة إلىٰ السماء وينكتها إلىٰ الناس، وكأن هاتفًا خفيًا انبعث في قلب الرسول ﷺ يشعره أن مقامه في الدنيا أوشك علىٰ النهاية، حتىٰ إنه اعتكف في رمضان من نفس السنة عشرين يومًا، وكان لا يعتكف إلا عشرًا فحسب، وتدارسه جبريلُ ما نزل من القرآن مرتين بينما كان لا يدارسه إلا مرة في شهر رمضان، ولمّا بعث معاذًا إلىٰ اليمن، أخذ يوصيه، فلما فرغ، قال:

- يا معاذ، إنك عسىٰ أن لا تلقاني بعد عامي هذا، أو لعلك أن تمر بمسجدي هذا وقبري.

فبكىٰ معاذٌ جشعًا لفراق رسول الله.

في هذه الأثناء، وفي زحمة هذا الموقف الخالد تتنزل علىٰ رسول الله درة من أغلىٰ الدرر، لكنها كانت تحمل في طياتها ثقل يرزَح له ذوي الأفهام والإلهام:

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

كلام يثلج الصدور، ويسكّن الأفئدة، لكنَّ عُمر بن الخطاب انتفض لسماعه وأخذته الرعشة وخنقته العَبرة، وسارت دموعه مدرارًا..

Scanned by CamScanner

فيهمس النبي ﷺ في أذن صاحبه:

- ما يبكيك؟

- أبكاني أنَّا كُنَّا في زيادة من ديننا، فأمَّا إذ كمل؛ فإنه لم يكمل شيء إلا نقص.

قالها ولصدره أزيز ونشيج، وهو يكفكف دموعه، ويمسح عَبراته بيديه، والرسول يهدئ من روعه:

- صدقت.

وأخذ الرسول يقول:

- يا أَيُّها الناسُ خُذُوا عَنِّي مناسككم، فإني لا أَدْرِي لَعَلِّي لا أَحُجُّ بعد عامي هذا.

ولما قضىٰ رسول الله مناسكه، حث الركاب إلىٰ المدينة المطهرة، وفي باله أمر مسيلمة والأسود العنسي، فقد استجاب لدعوة الأسود قومه «بنو مِذحِج»، فوثب بهم علىٰ «صنعاء»، وقتل واليها «شهر بن باذان» وتزوج من امرأته «آذاد».

ثم وثب من «صنعاء» علىٰ المناطق الأخرىٰ، فجعلت تتهاوىٰ تحت ضرباته بسرعة مُذهلة حتىٰ دانت له البلاد الواقعة ما بين حضرموت إلىٰ الطائف، وما بين

Scanned by CamScanner

البحرين[١] والأحساء إلىٰ عدن، فغلظ أمره، واستطارت دعوته كما تستطير النار المستعرة في الهشيم اليابس. وأحس أن قبائل اليمامة وما جاور الخليجُ العربي، كانت تتهيأً للثورة علىٰ الدين الجديد، ومع أنَّ النبيّ ﷺ لم يُغفل هذا التطوُّر السلبي، إلَّا أنَّ اهتمامه السياسيّ انحصر في الالتفات نحو الشمال حيث جبهة الروم المفتوحة من بعد معركة مؤتة، فأخذ يجيش جيشًا وجعل علىٰ رأسه قائدًا من شباب المسلمين لم يتجاوز السابعة عشرة ربيعًا بعد، هو «أسامة بن زيد»، الذي قُتل أبوه علىٰ أيدي الروم في معركة مؤتة هو وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن راواحة، وحزن النبي عليهم، فجعفر ابن عمه، وعبد الله شاعره، وزيد أبو أسامة هو ربيبه الذي تبناه قديمًا، ووجد النبي في أسامة ريحًا من ريح أبيه، فندب الناس لغزو الروم في آخر صفر من العام الحادي عشر ودعا أسامة، فقال:

---

(١) إقليم البحرين: هو منطقة تاريخية كانت تقع في شرق شبه الجزيرة العربية. امتدت من البصرة شمالًا إلىٰ عمان جنوبًا علىٰ طول ساحل الخليج العربي، وقد شملت الكويت، والأحساء وقطر والإمارات وجزء من عمان بالإضافة إلىٰ جزر أُوَال (مملكة البحرين حاليًّا). انظر: «معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية»، تأليف: عاتق بن غيث (ص ٤٠-٤١).

Scanned by CamScanner

- سر إلىٰ موضع مقتل أبيك فأوطئهم الخيل، فقد وليتك هذا الجيش.

وطعن بعض الناس في إمارة أسامة، فرد عليهم رسول الله، بشدة:

- إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وأيم الله إن كان لخليقًا للإمارة وإن كان لمن أحب الناس إليَّ، وإن هذا لمن أحب الناس إليَّ بعده.

❁❁❁

فتحت الفتنة أبوابها، وولج الناس منها، وازداد شر مسيلمة الكذاب والأسود العنسي واستشرىٰ فسادهما، فسير النبي نحو عشرةٍ من أصحابه برسائل إلىٰ من يتوسم فيهم الخير من أصحاب السابقة في (اليمن) يحضهم فيها علىٰ مواجهة هذه الفتنة العمياء بالإيمان والحزم، ويأمرهم بالتخلص من الأسود العنسي.

أما مسيلمة الكذَّاب فرأىٰ الرسول ﷺ أن يبعث إليه برسالة يزجره فيها عن غيه، وندب لحمل الرسالة بطلًا من أبطال الإسلام، وفارس من فرسانه، هو «حبيب بن زيد الأنصاري»، وكان يومئذ شابًا ناضر الشباب، مكتمل الفتاء.

مضىٰ حبيب بن زيد إلىٰ ما أمره رسول الله ﷺ غير وانٍ

Scanned by CamScanner

ولا متريث ترفعه النِّجاد وتحطه الوهاد، حتىٰ بلغ ديار بني حنيفة في أعالي «نجد».

دفع الرسالة إلىٰ مسيلمة، فما كاد مسيلمة يقف علىٰ ما جاء فيها حتىٰ انتفخ صدره ضغينة وحقدًا، وبدا الشر والغدر علىٰ قسمات وجهه الدميم الأصفر، وأمر بحبيب بن زيد أن يُقيد ويودع في سجنٍ ويؤتىٰ به ضحىٰ اليوم التالي.

(١٥)

«أنتم علىٰ موعدٍ مع رسول الله ﷺ عند العقبة في آخر الهزيع الأول من الليل».

أسرَّ الفتىٰ المكي مصعب بن عمير بهذه الكلمات إلىٰ واحدٍ من مسلمي «يثرب» الذين آمنوا بدعوة النبي علىٰ يد سفيره الداعية مصعب، فسرىٰ الخبر بين المسلمين الجدد سريان النسيم في سرعة وخفة وهدوء، فقد اندسوا بين جموع حجاج المشركين الوافدين إلىٰ مكة من كل حدب وصوب.

أقبل الليل فاستسلم حجاج المشركين إلىٰ الكرىٰ، وجعلوا يغطون في نوم عميقٍ بعد يومٍ جاهدٍ ناصبٍ قضوه في التطوف حول الأوثانٍ، والذبح للأصنام، وقضاء الصفقات التجارية بين القبائل.

Scanned by CamScanner

لكنَّ أصحاب مصعب بن عمير من مُسلمي يثرب لم يغمض لهم جفنٌ، وكيف لجفونهم أن تغمض، فقلوبهم تخفق فرحة باللقاء الذي قطعوا من أجله الفيافي والقفار، وعيونهم تكاد تطير من بين مآقيها شوقًا إلىٰ رؤية نبيهم الحبيب، فقد آمن به أكثرهم قبل أن يسعدوا بلُقياه، وتعلقوا به قبل أن تكتحل أعينهم بمرآه.

وفي آخر الهزيع الأول من أوسط أيام التشريق وعند العقبة في «مِنىٰ» تم اللقاء الكبير في نجوة من قريش.

تقدم اثنان وسبعون رجلًا من النبي ﷺ ووضعوا أيديهم واحدًا تلو الآخر في يديه الشريفة مبايعين علىٰ أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأولادهم.

فرغ الرجال من بيعته، وتقدمت امرأتان فبايعتا علىٰ ما بايع عليه الرجال، ولكن من غير مصافحة باليد، ذلك أن الرسول لا يصافح النساء.

كانت إحدىٰ هاتين المرأتين تعرف بأم منيع، أما الأخرىٰ فهي «نسيبة بنت كعب المَازينية - أم عِمارة».

مر هذا المشهد بذهن حبيب بن زيد الأنصاري وهو راسف في قيوده، يجلس القرفصاء في محبسه، يتذكر أمه «نسيبة» وهي تبايع النبي ﷺ هي وأبوه زيد بن عاصم وهو

Scanned by CamScanner

بينهما صغيرًا إلىٰ جوار أخيه عبد الله بن زيد، وقد صافح بكفه الصغيرة كف النبي ﷺ وأسهم مع النفر السبعين في صنع تاريخ الإسلام.

كان حبيب بن زيد في محبسه راسخ القلب، ثابت الإيمان فقد نبت الإيمان مع لحمه ودمه يوم بايع النبي بيديه الصغيرتين، مطمئنٌ لزوال «مسيلمة» و«العنسي»، فهو يذكر يوم أن قص النبي رؤيا السوارين، وتأوليه ﷺ أنهما كذابين يَخْرُجَانِ بعده، فأبصر حبيبٌ ببصيرته أن هلاكهما آتٍ لا محال، وأن كيدهما ضعيفٌ مهما تضاخم، وذلك بدلالة طيرانهما بالنفخ، فشأنهما زبد لا بد أن يئول إلىٰ جفاء ما دام هذا الكيد مستمدًا من الشيطان فهو واهن لا محالة، إذ أقل هجمة مركزة في سبيل الله تحيلهما أثرًا بعد عين، حتىٰ وإن كان أمرهما كالسوار يحيط بالمعصم يحاولان الإحاطة بكيان المسلمين من كل جانب، وإن وصفه لهما ﷺ بأنهما من ذهب دلالة علىٰ كذبهما؛ لأن شأنهما زخرف وتمويه، تذكر حبيب قول النبي ﷺ لمسيلمة يوم جاء مع الوفد، «وإني لأراك الذي أُريت فيه ما أريت»، فاستسلم للنوم، هادئ الخاطر مطمئن القلب.

❁❁❁

Scanned by CamScanner

ما من أحدٍ بلغته رسالة النبي ﷺ في الأسود العنسي إلا لبىٰ دعوته، وهب لإنفاذ أمره، وكان أسبق الناس استجابةً لندائه «فيروز الديلمي» ومن معه من «الأبناء». فلم يَرْتَب فيروز ومن معه لحظةً في دين الله، ولا وقع في قلب أي منهم تصديقٌ للأسود العنسي.

وكانوا يتحينون الفرص للوثوب عليه والتخلص منه بكل سبيل، فلما وردت عليهم وعلىٰ أصحاب السابقة من المؤمنين كُتُب رسول الله ﷺ؛ تقوّىٰ بعضهم ببعض، وهبَّ كل منهم يعمل في جهته.

وكان الأسود العنسي قد داخله الغرور والكبر لما أصاب من نجاح، فتكبر علىٰ قائد جيشه «قيس بن عبد يغوث» وتجبر، وتغير في معاملته له حتىٰ صار قَيسٌ لا يأمن علىٰ نفسه من بطشه.

فمضىٰ إليه فيروز وابن عمه «داذويه» وأبلغاه رسالة النبي ﷺ، ودعواه لأن يتغدىٰ بالرجل قبل أن يتعشىٰ به.

فانشرح لدعوتهما صدره، وكشف لهما عن سره، ورآهما كأنهما هبطا عليه من السماء.

فتعاهدوا الثلاثة علىٰ أن يتصدوا للمتنبئ الكذاب من الداخل بينما يتصدىٰ له الآخرون من الخارج.

Scanned by CamScanner

واستقر رأيهم علىٰ أن يشركوا معهم «آذاد» ابنة عم فيروز التي تزوج بها الأسود العنسي بعد قتل زوجها «شهر بن باذان».

مضىٰ فيروز إلىٰ قصر الأسود العنسي والتقىٰ ابنة عمه فقال لها:

- يا ابنةَ العَمِّ، لقد عرفت ما أنزله هذا الرجل بك وبنا من الشر والضُّر؛ فلقد قتل زوجك، وفضح نساء قومك، وأهلك كثيرًا من رجالهم، وانتزع الأمر من أيديهم.

وهذا كتاب رسول الله ﷺ إلينا خاصةً وإلىٰ أهل اليمن عامةً يدعونا فيه إلىٰ القضاء علىٰ هذه الفتنة.

أخذت «آذاد» تنظر في كتاب رسول الله، فقال لها فيروز:

- هل لك أن تعينينا عليه؟!

- أعينكم علىٰ أي شيء؟

- علىٰ إخراجه.

- بل علىٰ قتله!

- والله ما قصدت غير ذلك؛ ولكني خشيت أن أواجهك به.

- والذي بعث محمدًا بالحق بشيرًا ونذيرًا ما ارتبت في ديني طرفة عين، وما خلق الله رجلًا أبغض إليَّ من هذا الشيطان.

Scanned by CamScanner

ووالله ما علمته منذ رأيته إلا فاجرًا، أثيمًا، لا يرعىٰ حقًا، ولا ينتهي عن منكر.

- وكيف لنا بقتله؟

- إنه متحرز متحرس لنفسه، وليس في القصر مكان إلا والحرس محيطون به غير هذه الحجرة النائية المهجورة؛ فإنَّ ظهرها إلىٰ مكان كذا وكذا علىٰ البرية، فإذا أمسيتم فانقبوها في عتمة الليل، وستجدون في داخلها السلاح والمصباح، وستجدونني في انتظاركم، ثم ادخلوا عليه واقتلوه.

تهلل فيرزو بِشرًا لما قالت، لكن ما لبث أن تهجم، متسائلًا:

- ولكنَّ نَقبِ حجرة في مثل هذا القصر ليس بالأمر الهين! فقد يمر بنا إنسان فيهتف ويستصرخ الحرس، فيكون ما لا تحمد عقباه!

قالت: ما عدوت الحق، ولكم عندىٰ رأي.

- ما هو؟

- ترسل غدًا رجلًا تأتمنه علىٰ هيئة عامل، فآمره أنا بنقب الحجرة من الداخل حتىٰ لا يبقىٰ من النقب إلا شيء يسير، ثم تُتمُّونه أنتم في الليل من الخارج بأيسر الجهد.

- نِعمَّ الرأي ما رأيتِ.

Scanned by CamScanner

(١٦)

كان القمر قد استكمل دورته، والنسيم يسري علىٰ جبال المدينة ورمالها، وفحيح الريح يشي بالصمت التام وسكون الليل، القوم يغطون في نومهم، منهم من أدىٰ صلاة الليل، وبعضهم سيقوم لأدائها، والنبي ﷺ قد فرغ للتو من صلاته، وعائشة إلىٰ جواره نائمة، فقام بهدوء حتىٰ لا يزعجها، وأخذ ثيابه رويدًا، وبعث إلىٰ خادمه أبي مُوَيْهِبَة، فلمَّا جاءه، قال:

- يَا أَبَا مُوَيْهِبَةَ، إِنِّي قَدْ أُمِرْتُ أَنْ أَسْتَغْفِرَ لِأَهْلِ الْبَقِيعِ فَانْطَلِقْ مَعِي، وأَسْرِجْ لِي دَابَّتِي.

ركِبَ النبي ﷺ بغلتَه وأبو مُوَيْهِبَة يمشي إلىٰ جواره، حَتَّىٰ انْتَهَىٰ إلىٰ مقابر الْبَقِيعِ، فَنَزَلَ عَنْ دَابَّتِهِ، وَأَمْسَكَ أبو مُوَيْهِبَة الدَّابَّةُ، فَلَمَّا وَقَفَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ قال:

- السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْمَقَابِرِ، لِيَهْنِ لَكُمْ مَا أَصْبَحْتُمْ فِيهِ، مِمَّا أَصْبَحَ فِيهِ النَّاسُ، لَوْ تَعْلَمُونَ مَا نَجَّاكُمُ اللهُ مِنْهُ، أَقْبَلَتِ الْفِتَنُ كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يَتْبَعُ أَوَّلُهَا آخِرَهَا، الْآخِرَةُ شَرٌّ مِنَ الْأُولَىٰ.

ثم التفت إلىٰ خادمه، فقال:

Scanned by CamScanner

- يَا أَبَا مُوَيْهِبَةَ، إِنِّي قَدْ أُوتِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الدُّنْيَا، وَالْخُلْدَ فِيهَا، ثُمَّ الْجَنَّةَ، وَخُيِّرْتُ بَيْنَ ذَلِكَ، وَبَيْنَ لِقَاءِ رَبِّي عَزَّوَجَلَّ وَالْجَنَّةِ.

- بِأَبِي وَأُمِّي، فَخُذْ مَفَاتِيحَ الدُّنْيَا، وَالْخُلْدَ فِيهَا، ثُمَّ الْجَنَّةَ.

- لَا وَاللهِ يَا أَبَا مُوَيْهِبَةَ، لَقَدِ اخْتَرْتُ لِقَاءَ رَبِّي، وَالْجَنَّةَ.

قالها، ثُمَّ نظر إلىٰ أهل المقابر مجددًا فقال:

- إنا إن شاء الله بكم لاحقون.

ثم رفع كفيه، وعلق بصره بالسماء، داعيًا: اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد.

وانْصَرَفَ..

وفي أثناء الطريق، أصابه صداع في رأسه، فدخل علىٰ عائشة البيت فوجدها تقول:

- وارأساه.

- بل أنا -يا عائشة- وارأساه.

❁❁❁

ارتفعت درجة الحرارة بجسد النبي، فكان يربط عصابة علىٰ رأسه، وكان كعادته ﷺ ينتقل كل يوم من بيت زوجة إلىٰ أخرىٰ بحسب دورهن، ولكنه مع اشتداد المرض به

Scanned by CamScanner

أصبح من الصعب عليه ﷺ أن يتنقل بين البيوت، فأراد أن يستقر في بيت إحداهن إلىٰ أن يقضي الله أمرًا كان مفعولًا، وكان ﷺ يريد أن يستقر في بيت أحبّ زوجاته إلىٰ قلبه، وهي عائشة بنت الصديق رضي الله عنهما؛ فكان يقول: «**أين أنا غدًا؟ أين أنا غدًا؟**» استبطاءً ليوم عائشة رضي الله عنها، ولكنه استحي أن يطلب ذلك من زوجاته لئلا يكسر نفوسهن، حتىٰ جاء يوم عائشة، فسكن، ومن أدبهن وحبهن له أَذِنَّ له بالبقاء حيث يحب، فخرج ﷺ في اليوم الخامس من ربيع الأول من السنة الحادية عشرة، إلىٰ بيت عائشة رضي الله عنها، وهو لا يَقْوىٰ علىٰ السير، فكان يتحامل علىٰ الفضل بن العباس، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم، وكانت قدماه تخطان في الأرض لا يقوىٰ علىٰ المشي، وكان عاصبًا رأسه.

ولم يخرج جيش أسامة إلىٰ غزوه لما سمع بشدة مرض النبي ﷺ وظل معسكرًا بالجرف[1].

وكانت عائشة تقرأ عليه بالمعوذات والأدعية التي حفظتها من رسول الله ﷺ، فكانت تنفث علىٰ نفسه، وتمسحه بيده رجاء البركة.

---

(١) **الْجُرْف**: بالضم ثم السكون، موضع علىٰ ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام.

Scanned by CamScanner

واتقـدت حـرارة العلـة في بدنـه، فاشـتد بـه الوجـع ولا يستطيع الحركة، فقال: هريقوا عليَّ سبع قرب من آبار شتىٰ، حتىٰ أخرج إلىٰ الناس، فأعهد إليهم، فأقعدوه في مخضب(١)، وصبوا عليه الماء، حتىٰ طفق يقول: «حسبكم، حسبكم».

وعند ذلك أحس بخفة، فدخل المسجد وهو معصوب الرأس وعليه مِلْحَفَةٌ مُتَعَطِّفًا بها علىٰ مَنْكِبَيْه حتىٰ جلس علىٰ المنبر، وخطب الناس، والناس مجتمعون حوله، فحَمِدَ الله وأَثْنَىٰ عليه، ثم قال قال:

«لعنة الله علىٰ اليهود والنصارىٰ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.. لا تتخذوا قبري وثنًا يعبد».

وعرض نفسه للقصاص قائلًا: «من كنت جلدتُ له ظهرًا فهذا ظهري فليستقد منه، ومن كنت شتمت له عرضًا فهذا عرضي فليستقد منه».

ثم نزل فصلىٰ الظهر، ثم رجع فجلس علىٰ المنبر، وعاد لمقالته الأولىٰ في الشحناء وغيرها، فقال رجل:

- إن لي عندك ثلاثة دراهم.

- أعطه يا فضل.

---

(١) وعاء تغسل فيه الثياب.

Scanned by CamScanner

وقال:

- وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لَأَنْظُرُ إِلىٰ الْحَوْضِ مِنْ مَقَامِي هَذَا.

ثم أوصىٰ بالأنصار قائلًا:

- أوصيكم بالأنصار، فإنهم كَرِشِي وَعَيْبَتِي [١]، وقد قضوا الذي عليهم، وبقي الذي لهم، فاقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم.

إن الناس يكثرون، وتقل الأنصار، حتىٰ يكونوا كالملح في الطعام، فمن ولي منكم أمرًا يضر فيه أحدًا أو ينفعه، فليقبل من محسنهم، ويتجاوز عن مسيئهم.

ثم قال:

- إنَّ عبدًا خيره الله أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده، فاختار ما عنده.

فقام أبو بكر كالسهم من بين الناس يمسك إزاره قبل أن يسترخي عن خصره لنحافته ودقة وركيه، فأخذ يبكي ويقول:

---

(١) أي: بطانتي وخاصتي، وأصل الكرش في اللغة: الجماعة. والعيبة - بفتح العين المهملة-: ما يخزن الرجل فيها ثيابه، يريد أنهم موضع سره وأمانته، وهو مما ضُرب المثل به، وهو من الكلام الوجيز الذي لم يسبق إليه.

Scanned by CamScanner

- فديناك بآبائِنا وأمهاتِنا وأنفُسِنَا وأموَالِنَا يا رَسُولَ الله.

فتعجب الناس له، فقال بعضهم: انظروا إلىٰ هذا الشيخ، يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا، وبين ما عنده، وهو يقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا.

وثبتت نظرات النبي في عيني أبي بكر الغائرة وجبهته المرتفعة ترشح عرقًا يتلالأ علىٰ بشرته البيضاء وقد نتأت عظام وجهه من خفة لحمه، ودمعاته تخالط شعر لحيته المخضب بالحناء، وذكريات الصحبة تتوالىٰ علىٰ الصاحبين.

فقال رسول الله ﷺ:

- إن أَمَنَّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذًا خليلًا غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلًا، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين في المسجد باب إلا سُدَّ، إلا باب أبي بكر.

❁❁❁

انصرف فيروز الديلمي وأخبر صاحبيه بما اتفق عليه مع آذاد، فباركوه، ومضوا من ساعتهم يعدون للأمر عدته.

جعلوا كلمة سرٍ بينهم لم يعلمها إلا خاصة المؤمنين من أنصارهم، الذين دعوهم للتأهب، وجعلوا موعدًا لهم فجر اليوم التالي.

Scanned by CamScanner

ولما جن الليل، وأزف الوقت المحدد؛ مضىٰ فيروز مع صاحبيه إلىٰ مكان النقب؛ فكشفوا عنه، وولجوا إلىٰ داخل الحجرة وتناولوا السلاح وأضاءوا المصباح، ومضوا نحو مقصورة عدو الله؛ فإذا ابنة عمه واقفة ببابها، فأشارت إليه فدخل عليها؛ فإذا بالأسود العنسي نائم يغط في نومه. فأهوىٰ فيروز بالشفرة علىٰ عنقه؛ فخار خوار الثور، واضطرب اضطراب البعير المذبوح.

سمع الحرس خواره؛ فأقبلوا علىٰ المقصورة وقالوا: ما هذا؟

قالت آذاد: انصرفوا راشدين، فإن نبي الله يوحىٰ إليه!

فانصرفوا..

❁❁❁

بقيت الكتيبة المؤمنة في قصر الأسود حتىٰ طلع الفجر، وبعد بزوغه وقف فيروز الديلمي علىٰ سور من أسواره وهتف:

- الله أكبر، الله أكبر.. أشهد أن لا إله إلا الله.. وأشهد أن محمدًا رسول الله، وأشهد أن الأسود العنسي كذَّاب..

وكانت هذه كلمة السر، فأقبل المسلمون علىٰ القصر من كل جانب، وهب الحرس مذعورين لما سمعوا الأذان،

Scanned by CamScanner

وتلاحم الفريقان بعضهم ببعض، فألقىٰ فيروز برأس الأسود من فوق أسوار القصر، فلما رآه أنصاره وهنوا وذهبت ريحهم، ولما أبصره المؤمنون كبروا وكروا علىٰ عدوهم، وقضي الأمر قبل طلوع الشمس.

(١٧)

أضحت الشمس علىٰ مسيلمة، وقد تصدر مجلسه في أبهة وخيلاء، وجعل عن يمينه وعن شماله كبار أتباعه، وأذن للعامة بالدخول عليه ثم أمر بحبيب بن زيد، فجيئ به يرسُفُ في قُيوده..

أوقفوه وسط هذه الجموع الحاشدة الحاقدة، فانتصب بينهما كرمحٍ صلبٍ أحكم المعدون تقويمه، مشدود القامة، مرفوع الهامة، شامخ الأنف، عزيز النفس.

التفت إليه مسيلمة وقال:

- أتشهد أن محمدًا رسول الله؟

- نعم أشهد أن محمدًا رسول الله.

بحماسةٍ أجابه، فتميز مسيلمة غيظًا، واقترب من أذنيه، وأحس حبيب نفسه الساخن، وهو يقول بصوت أجش:

Scanned by CamScanner

- وتشهد أني رسول الله؟

- هه!! إن في أذني صممًا عن سماع ما تقول.

بسخرية لاذعة كان جواب حبيب، فامتقع وجه مسيلمة، وارتجفت شفتاه حَنقًا، وقال لأحد اتباعه:

- اقطع قطعة من جسده.

انتبه الناس للرجل وخطواته تقترب من حبيب، وقد علا السيف فوق جسده، يشق اللحم عن بدنه، وبتر قطعة تدحرجت على الأرض، وصرخة حبيب يردد أصداها الخلاء، وتدفق الدم غزيرًا فأصابت بعض قطراته الواقفين، فعاد مسيلمة إليه، واقترب منه ليسأله السؤال نفسه:

- أتشهد أن محمدًا رسول الله؟

- نعم أشششهد أن محمدًا رسول الله.

بصوت خافتٍ يكابد الألم جاوبه، فصرخ مسيلمة:

- وتشهد أني رسول الله؟

- قلتُ لكَ إن في أذني صممًا عن سماع ما تقول.

خرجت كلماته تحمل آلامًا اجتمعت بين الحروف المضغوط عليها من شدة الوجع، فأمر مسيلمة بأن تقطع من جسده قطعة أخرى، فقطعوها وتدحرجت حتى استقرت

Scanned by CamScanner

إلىٰ جانب أختها، وحبيب يصرخ:

- أشهد أن محمدًا رسول الله، وأنك أحد الكذابين.

ومضىٰ مسيلمة يسأل والسياف يقطع والدماء تسير علىٰ الأرض، واللحم يتجمع تحت رجليه، والناس شاخصو الأبصار، مذهولون من ثبات حبيب وشدته، لا يتزعزع ولا يتوانىٰ، يصرخ بكل خلية في جسده:

- أشهد أن محمدًا رسول الله.

حتىٰ صار نحوًا من نصفه قطعًا منثورة علىٰ الأرض، ونصفه الآخر كتلة تتألم بين عظامٍ متجردة ودماء خالطها العرق والدموع.. ثم فاضت روحه وعلىٰ شفتيه اسم النبي الذي بايعه وآمن به ودافع عنه.

(١٨)

جعل وحشي بن حرب يحضر مجالس الرسول، ورغب في أن يسمع منه وينهل من علومه ووحيه، وهو في ذلك يتجنب أن يقع بصر النبي عليه، فإذا جلس الصحابة أمامه أخذ مكانه خلفه، وبقي علىٰ هذه الحال، يتخفىٰ بين الصحابة في المجالس، ويختبئ خلف السواري، وفي الوقت

Scanned by CamScanner

نفسه كان ينتظر كلَّ دقيقة بل كلَّ ثانية، دعوةً أخرىٰ من رسول الله ليشخص له، يحاول أن يتصيد نظراته، وهو يمني نفسه، ألا يأتي يوم يقول لي فيه: آن لك أن تظهر أمامي يا وحشي!!

وتناهىٰ إلىٰ سمعه رجل من بين الصحابة يقوم ليسأل النبي ﷺ، ويقول:

- يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا نَأْكُلُ وَلَا نَشْبَعُ.

فتبسم النبي ﷺ وقال:

- فَلَعَلَّكُمْ تَأْكُلُونَ مُفْتَرِقِينَ.

- نَعَمْ.

- اجْتَمِعُوا عَلَىٰ طَعَامِكُمْ، وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ يُبَارَكْ لَكُمْ فِيهِ.

تأمل وحشيٌّ عظمة هذا الدين الذي نظم أدق تفاصيل حياة الإنسان، بعد أن كانوا في جاهلية يأكل بعضهم بعضًا، تألم أنه لم يكن مع ركب السابقين، وفي قلبه ندمٌ علىٰ ما فعل، وحسرة علىٰ إشعال صدر النبي وإحزانه علىٰ عمه، علىٰ الرغم من أن الإسلام يجب ما قبله، فإن النفوس ليس بيدها شفاء الأحزان.

وبينما هو يجلس مع نفسه يستذكر فداحة فعلته، ويستشعر المصيبة التي أصاب بها الإسلام، خُيِّلَ إليه مشهد المعركة من جديد، وتذكر أبا دجانة الأنصاري وهو يتبختر في قميص وعمامة حمراء قد عصب بها رأسه، وفي يديه سيف الرسول ﷺ الذي عَلِمَ بعد ذلك أن النبي يومها نادىٰ في أصحابه:

- من يأخذ هذا السيف بحقه؟

فقال أبو دجانة:

- وما حقه يا رسول الله؟

- تقاتل به في سبيل الله حتىٰ يفتح الله عليك أو تقتل.

فأخذه وجعل يتبختر به والنبي ﷺ ينظر إليه ويقول:

- إنها لمشية يبغضها الله ورسوله إلا في هذا الموطن.

لم تكد تهدأ خواطر وحشي حتىٰ سمع نعيَّ حبيب بن زيد في شوارع المدينة، فانتبه له فزعًا، وكل من سمع نعيه من الصحابة فزع له أيضًا، تألموا كثيرًا لصاحبهم وما ذاقه من العذاب ما تتزلزل له الصمُّ الصِّلاب، ورثاه مالك بن عمرو الثقفي قائلًا:

مضى صاحبي قبلي وخُلّفتُ بعده فكيف بأعضائي البقيةِ أصنعُ

Scanned by CamScanner

وقال له الكذابُ تـشهد أنـني رسولٌ فأوما أنني لستُ أسـمعُ
فقـال أتـشهد أنهـا لمحمـدٍ فنادى بدعوى الحقِّ لا يتتعتع
فضرب أمِّ الرأس فيـه بـسيفه غويٌّ -لحاه الله- بالفتكِ مولَعُ

وطـار خـبر مـصرع حبيـب إلـىٰ أمـه نـسيبة المازنيـة (أم عمارة) كريح صرصر عاتية؛ فطوت جوانحها علىٰ أحزانها، وما زادت علىٰ أن قالت:

- مـن أجـل مثـل هـذا الموقـف أعددتـه.. وعنـد الله احتسبته. لقد بايع الرسول بيعة العقبة صغيرًا.. ووفىٰ لـه اليوم كبيـرًا. ولـئن أمكننـي الله مـن مـسيلمة لأجعلـن بناتـه يلطمـن الخدود عليه.

(١٩)

اجتمع الناس في مسجد رسول الله علىٰ إثر نـداء بـلال الـذي طـاف جهوريًـا علـىٰ بيـوتهم، يُعلِمهـم بحـضور وقـت صـلاة العشاء، والنبي ﷺ مع ما كان به مـن شـدة المـرض كـان يـصلي بالناس جميع صلواته طيلة أيام مرضه الستة السابقة، وقد صلىٰ بالناس ذلك اليوم صلاة المغرب، فقرأ فيها بسورة المرسلات.

وعند العشاء زاد ثقل المرض، فلـم يـستطع الخـروج إلـىٰ

Scanned by CamScanner

المسجد، وتأخر الوقت على الصحابة، وهم ينتظرون النبي في المسجد، والنبي على فراشه والحمى تنهش في جسده، وهو يسأل:

- أصلى الناس؟

- لا يا رسول الله، هم ينتظرونك.

- ضعوا لي ماءً في المخضب.

ففعلوا، فاغتسل، فذهب لينوء فأغمي عليه، فاختلع قلب عائشة من مكانه، واهتز الرجال من حوله، ثم أفاق، فقال: «أصلى الناس»؟ فقالوا لا..

ووقع ثانيًا وثالثًا ما وقع في المرة الأولى من الاغتسال ثم الإغماء حينما أراد أن ينوء،

فلما وجد من نفسه الثقل وشدة التعب، قال:

- مُرُوا أَبَا بَكْرٍ، فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ.

وقبل أن يذهب بلال ويرسل في طلب الصديق، راجعته عائشة لئلا يتشاءم الناس بأبيها فقالت:

- إن أبا بكر رجل رقيق ضعيف الصوت كثير البكاء إذا قرأ القرآن، فلو أمرت غيره.

- مروا أبا بكر أن يصلي بالناس.

Scanned by CamScanner

وأصر النبي على ذلك، فقالت عائشة لحفصة:

- قولي له إن أبا بكر رجل أسيف وإنه متى يقم مقامك لا يسمع الناس، فلو أمرت عمر.

فقال: إنكن لأنتن صواحب يوسف، مروا أبا بكر أن يصلي بالناس.

فقالت حفصة لعائشة بغضب:

- ما كنت لأصيب منك خيرًا.

وخرج عبد الله بن زمعة وهو يظن أن النبي ﷺ قال: «مُرُوا إِنْسَانًا يُصَلِّي بِالنَّاسِ» فَلَقِيَ عُمَرَ بن الخطاب، فَقَالَ لَهُ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ كَذَا وَكَذَا، فتَقَدَّمْ فَصَلِّ بِالنَّاسِ، فأقيمت الصلاة، وذَهَبَ عمر فَتَقَدَّمَ يُصَلِّي بِالنَّاسِ فَسَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ صَوْتَهُ وهو يساوي الصفوف، فقَالَ:

- مَنْ هَذَا؟

- عُمَرُ، يا رسول الله.

- لَا، يَأْبَى اللهُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ.

فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ زَمْعَةَ:

- لَمْ يَكُنْ سَمَّانِي؟

- لَا.

Scanned by CamScanner

فَلَامَهُ أَشَدَّ اللِّئَامَةِ وَتَغَيَّظَ عَلَيْهِ، وأتىٰ أبو بكر، وأخذ المسلمون يصطفون خلفه، فكبر، ولأول مرة يصلون من دون رسول الله، فلما دخلوا في الصلاة وجد رسول الله ﷺ في نفسه خفة فقام يُهادىٰ بين رجلين ورجلاه تخطان في الأرض من شدة الألم حتىٰ دخل المسجد، فلما سمع أبو بكر حِسَّه ذهب يتأخر، فأومأ إليه رسول الله ﷺ، أن يستمر، فجاء رسول الله ﷺ حتىٰ جلس عن يسار أبي بكر، فكان أبو بكر يصلي قائمًا وكان رسول الله ﷺ يصلي قاعدًا يقتدي أبو بكر بصلاة رسول الله ﷺ والناس مقتدون بصلاة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

❁❁❁

انتهىٰ المسلمون من صلاتهم، وإذا برسول الله يتهلل وجهه سرورًا، وقد جاءته البشارة من السماء، فقال: قُتل العنسيُّ، قتله رجلٌ مباركٌ من أهلِ بيت مباركِين.

قيل: وَمَن قتله؟

قال: فيروز..

فاز فيروز.

Scanned by CamScanner

(٢٠)

﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾ [التوبة:٩٧].

كان الرجَّال بن عنفوة يتعلم القرآن من أُبي بن كعب أيام كان مسلمًا، فألقىٰ مسيلمة إليه السمع وقد أرهف إليه كل حواسه، وجعل يحفظ قدر ما يستطيع من الذكر وأن يسري جرسه وموسيقاه في دمه.

جعل مسيلمة يسجع الأساجيع ليضاهي القرآن، فجعل يغمغم:

«يَا ضِفْدَعُ بِنْتُ ضِفْدَعِينَ، نِقِّي كَمْ تَنِقِّينَ، لَا الْمَاءَ تُكَدِّرِينَ، وَلَا الشَّارِبَ تَمْنَعِينَ، رَأْسُكِ فِي الْمَاءِ وَذَنَبُكِ فِي الطِّينِ».

واستمر يستمع من القرآن لينسج علىٰ آياته البينات سجعاته النكرات، وأخذ يتلوا:

«وَالشَّمْس وَضُحَاهَا في ضوئها ومنجلاها، وَاللَّيْل إِذا عَداهَا يطْلبهَا ليغشاها فأدركها حَتَّىٰ أَتَاهَا وأطفأ نورها فمحاها».

Scanned by CamScanner

وكانت له محاولة قديمة في مشابهة القرآن، فقد كان يتتبع أخبار النبي ﷺ، والتقىٰ عمرًا بن العاص يومًا -وكان عمرو وقتها مشركًا- فقال له مسيلمة:

- ماذا أُنزل علىٰ صاحبكم في هذا الحين؟

- لقد أُنزل عليه سورة وجيزة بليغة.

- وما هي؟

- أنزل عليه: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر].

ففكر مسيلمة بعض الوقت، ثم رفع رأسه فقال:

- ولقد أنزل عليَّ مثلها.

- وما هي؟

- يا وبر يا وبر، إنما أنت إيراد وصدر، وسائرك حفر نقر.

ثم قال:

- كيف ترىٰ يا عمرو؟

فقال عمرو:

- والله إنك لتعلم أني أعلم أنك تكذب.

والآن جاءته الفرصة كي يؤلف ويصنع من ترهاته قرآنًا

Scanned by CamScanner

يضاهي به القرآن المبين، وسار في غيه يردد:

«الْفِيلُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْفِيلُ، لَهُ زَلُّومٌ طَوِيلٌ، إِنَّ ذَلِكَ مِنْ خَلْقِ رَبِّنَا الْجَلِيلِ».

ويقول:

«إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْجَوَاهِرْ، فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَهَاجِرْ، إِنَّ مُبْغِضَكَ رَجُلٌ كَافِرْ».

وأحلَّ مسيلمة الخمر والزنا، ووضع عن اتباعه الصلاة، وأباح لهم ما تشتهيه أنفسهم.

❁❁❁

انحرفت بنو حنيفة عن جادة الطريق، فآمنوا بمسيلمة وأخذوا يتلون قرآنه وأساجيعه، وجعلوا يسألونه الدعوات لمرضاهم، ويتبركون مواليدهم منه، رغم أنهم رأوا فضيحته أما أعينهم..

جاء ناس إليه بمولود يبركه، فمسح رأسه فقرع!

وجاء رجل يسأله أن يدعوا لمولوده بطول العمر فمات من يومه!

ودعا لرجلٍ أصابه وجع في عينه فمسحها، فعمىٰ!

وهو في ذلك يتشبه بالنبي في أفعاله ولكن هيهات

Scanned by CamScanner

هيهات.. بلغه أن الرسول بصق في بئرٍ فغزر ماؤها، فإذا به يبصق أيضًا في بئرٍ، فغاض ماؤها بالكلية!!

وإذا به يجرب في أخرىٰ فصار ماؤها أجاجًا ملحًا!!

توضأ وسقىٰ بوضوئه نخلًا، فيبست وهلكت!!

كل هذا والناس له مصدقون وبه يتبركون، يتلون قرآنه، ويتمسكون بضلاله، يا لظلمة الجهل كيف تُعمي البصر والبصيرة؟!

وفي هذه الأثناء، كان «ثمامة بن أُثال» يتابع ما يحدث في قومه بني حنيفة، وكيف يتفلتون واحدًا تلوا الآخر، وبيتًا بعد بيتٍ، كيف خُدعوا بفتنة هذا الكذاب وضلاله، فوقف لهم كالجبل الأشم، يقول:

- يا بني حنيفة..

إياكم وهذا الأمر المظلم الذي لا نور فيه، إنه والله لَشقاءٌ كتبه الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ مَنْ أخذ به منكم، وبلاءٌ علىٰ مَنْ لم يأخذ به.

حملت كلماته نور البصيرة ففرق بين البلاء والشقاء، فالأخير سرمدي أبدي، والأول وإن طالت به الأيام فلابد من نهايته، ثم استأنف حديثه:

Scanned by CamScanner

- يا بني حنيفة..

إن محمدًا رسول الله لا نبيَّ بعده.. ولا نبيَّ يُشرَك معه، كما أن الله لا شريك له في ألوهيته فلا شريك لمحمدٍ في نبوته..

ثم قرأ:

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾ [غافر:١-٣].

ثم قال:

- أين كلام الله هذا من قول مسيلمة:

يا ضفدع نقي ما تنقين لا الشراب تمنعين ولا الماء تكدرين..!!!

(٢١)

ندت من دور الرسول صرخة اهتزت لها قلوب المسلمين، وإذا بعائشة تنادي:

- مات رسول الله.

وتسرب النبأ الفادح من البيت المحزون، له طنين في الآذان، وثقل ترزح تحته النفوس، وتدور به البصائر والأبصار،

Scanned by CamScanner

وشَعَرَ المؤمنون أن آفاق المدينة أظلمت، فتركتهم لوعة الثُكل حيارىٰ لا يدرون ما يفعلون، فمنهم من دُهش فخولط، ومنهم من أُقعد فلم يقوَ علىٰ قيام، ومنهم من اعتقل لسانه فلم ينطق بكلام...

ووقف عمر بن الخطاب مذهولًا يصرخ في الناس، وكان طويلاً جسيمًا أصلع الرأس، قد فرع الناس، كأنه راكب علىٰ دابة من طوله، أخرجه الخبر عن وعيه فأخذ يقول:

- والله ما مات رسول الله، ولكن ذهب إلىٰ ربه كما ذهب موسىٰ بن عمران، فغاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إلىٰ قومه.

كان من هول الخبر لم يرتدِ عمامة علىٰ رأسه، فتعرضت صلعته للهيب الشمس فأخذ رأسه ووجهه يتفصدان عرقًا، وكان أبيض ناصع البياض، تعلوه حمرة، الناس حوله مجتمعون، لا يدرون ما يفعلون، وهو مستمر وعيناه كالجمر من احمرارها:

- والله ليرجعن رسول الله، كما رجع موسىٰ، فليقطعن أيدىٰ رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات.

ارتفع صوت فاطمة من حجرة عائشة تبكي أباها وحبيبها الذي غمرها حبًا وحنانًا وأمانًا، فقالت في صوت واهٍ حزين:

Scanned by CamScanner

- وا أبتاه.. أجاب ربًا دعاه..

وا أبتاه.. جنة الفردوس مأواه..

وا أبتاه.. إلىٰ جبريل ننعاه..

بينما عُمر علىٰ حالته يتوعد الناس حتىٰ أزبد شدقاه، ودهش الناس وطاشت عقولهم، فما كانوا قادرين علىٰ أن يتقبلوا أمر الموت الذي طاف علىٰ جميع بيوتهم مرات ومرات، ففارقوا الأحبة، وودعوا الأقارب، لكن ما تخيلوا يومًا يقبض فيه رسول الله من بين أيديهم، أن ينتزع منهم نسيم الهواء الذي طابت به الحياة، أن يتلاشىٰ النور الذي أضاء دايجير الظلام حولهم.

أحقًا انقطع عن الأرض وحي السماء؟

أحقًا خسف القمر فما عد له بزوغ؟

أكسفت الشمس فما للأرض من إشراق؟

وهرع الناس إلىٰ سَالِمِ بْنِ عُبَيْدٍ فقالوا:

- يَا سَالِمُ انْطَلِقْ إِلَىٰ صَاحِبِ رسول الله ﷺ، فَادْعُهُ.

فأتىٰ أَبَا بَكْرٍ وَهُوَ يبْكِي دَهِشًا، فَلَمَّا رَآه قال:

- أقبض رسول الله ﷺ؟

- إِنَّ عُمَرَ يَقُولُ: لَا أَسْمَعُ أَحَدًا يَذْكُرُ أن رسول الله ﷺ

Scanned by CamScanner

قُبِضَ إِلَا ضَرَبْتُهُ بِسَيْفِي هَذَا.

- انْطَلِقْ.

فانطلق معه، فجاء وَالنَّاسُ قَدْ دَخَلُوا عَلَىٰ رسول الله ﷺ، وأقبل أبو بكر يتخطىٰ الزحام، حتىٰ نزل علىٰ باب المسجد، وعمر واقف يصرخ في الناس، فلم يأبه به، فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَفْرِجُوا لِي. فَأَفْرَجُوا لَهُ، حتىٰ استأذن علىٰ عائشة، فاحتجبت النساء إلا ابنته، وأقبل علىٰ رسول الله وهو مسجىٰ في ناحية من بيتها، عليه برد حَبَرَةُ[1]، فكَشَفَ عن وجهه الشريف، فإذا نور ﷺ، وإذا بقلب الصدِّيق يخفق، وذكريات الصُحبة تتوالىٰ علىٰ مخيلته، فقَبَّله بين عينيه، ودمعة تفارق مقلتيه، لتسقط علىٰ وجه رفيقه المشرق، فتتبعها أخريات، يمنعها بيده، وهو يحتضنه ويقول:

- وانبياه، واخليلاه، واصفياه!!

ثم تماسك قائلاً:

- بأبي أنت وأمي، طبت حيًّا وميتًا، يا رسول الله..

والله لا يجمع الله عليكَ موتتين.. أما الموتة التي كُتبت عليك فقد ذقتها.

---

(١) الحَبَرَةُ: ثوب من قطن أو كتَّان مخطَّط كان يصنَع باليمن.

Scanned by CamScanner

ثم رد الثوب علىٰ وجهه، وخرج حيث عُمر، فقال:

- علىٰ رسلك يا عمر.. أنصِتْ.

لم ينتبه له عمر، ولم يفق من ذهوله وأكمل توعده للناس، فتركه أبو بكر وأقبل علىٰ الناس، فالتفوا من حوله، فقال:

- أيها الناس.. من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت.

ثم تلا قول الله:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران:١٤٤].

وقعت الآية علىٰ سمع عُمر وكأنها تتلىٰ لأول مرة، فخرَّ أرضًا من توه ما تحمله قدماه، لقد أخرجت الآية الكريمة المسلمين من أوهام الأحلام إلىٰ حقيقة الموت، لقد أدرك الناس ساعتها أن رسول الله قد مات، ونزل بالناس حزن ثقيل وخيم الأسىٰ علىٰ مدينة الرسول.

ثُمَّ قَال الناس لأبي بكر:

- يَا صَاحِبَ رسول الله أقبض رَسُولِ اللهِ ﷺ؟

- نَعَمْ.

Scanned by CamScanner

قالها واهنة حزينة، فَعَلِمُوا أَنْ قَدْ صَدَقَ.

- يَا صَاحِبَ رَسُولِ اللهِ أَيُصَلَّىٰ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ؟

- نَعَمْ.

- وَكَيْفَ؟

- يَدْخُلُ قَوْمٌ فَيُكَبِّرُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَدْعُونَ ثُمَّ يَخْرُجُونَ، ثُمَّ يَدْخُلُ قَوْمٌ فَيُكَبِّرُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَدْعُونَ ثُمَّ يَخْرُجُونَ حَتَّىٰ يَدْخُلَ النَّاسُ.

- يَا صَاحِبَ رَسُولِ اللهِ أيدفن رَسُولِ اللهِ ﷺ؟

- نَعَمْ.

- أَينَ؟

- فِي الْمكَانِ الَّذِي قَبَضَ اللهُ فِيهِ رُوحَهُ، فَإِنَّ اللهَ لَمْ يَقْبِضْ رُوحَهُ إِلَا فِي مَكَانٍ طَيِّبٍ.

فَعَلِمُوا أَنْ قَدْ صَدَقَ ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يَغْسِلَهُ بَنُو أَبِيهِ.

وحان موعد الأذان، فانطلق بلال بنفسٍ أعياها الحزن، وسار بخطىٰ ثقيلة، يحرك قدمًا، ويرجع بأخرىٰ، حتىٰ إذا بلغ المسجد انسكب الدمع من عينيه، ودخل وهو يترنح فوقع بصره علىٰ باب الرسول والستار مرخىٰ عليه، فاستشعر وكأن خنجرًا مزق نياط قلبه، فلن يخرج الرسول منه بعد، ولن يتوجه

إليه بلال ليخبره أن الناس في المسجد ينتظرونه للصلاة كعادته، لن ينتظروه بعد اليوم، فقد غابت شمسهم إلىٰ الأبد.

ارتقىٰ بلال سطح المسجد، وقد نال منه الحزن، وراح يؤذن بصوت فيه رنة أسىٰ عميق:

- الله أكبر.. الله أكبر

الله أكبر.. الله أكبر

أشهد أن لا إله إلا الله

أشهد أن لا إله إلا الله

أشهد أن محـ....

وخنقت بلال العَبرات فما استطاع أن يذكر اسم النبي ﷺ وهو مسجىٰ في سريره، فأجهش بالبكاء.

وسمع الناس انقطاع الأذان وبكاء بلال، فبكوا لبكائه، وتألموا لمصابه، فالمصاب واحد، والألم شديد عليهم، بكوا وبكوا وضجت المدينة بالبكاء.

(٢٢)

انزوىٰ الأنصار علىٰ أنفسهم حزنًا وهمًا من هَول ما تقرر أخيرًا من وفاة النبي ﷺ وقد أحسوا باليُتم، وعانوا شدة

الفقد، فلم يكن النبي مجرد رسول بعث إليهم ورحل، بل كان أبًا يحتويهم، وقائدًا يجمع شتاتهم، وسيدًا يوحد كلمتهم، كانوا يخشون تلك اللحظة، منذ رأوا النبي فاتحًا لمكة وعند جبل الصفا يدعو، قالوا فيما بينهم وقد تمكن الخوف منهم: أترون أن رسول الله ﷺ إذا فتح الله عليه أرضه وبلده يُقيم بها؟! فلما فرغ ﷺ من دعائه قال ماذا قلتم؟ قالوا: لا شيء يا رسول الله، فلم يزل بهم حتىٰ أخبروه، فقال ﷺ: (المحيا محياكم، والممات مماتكم).

كان كل ما يشغلهم وقتها أن يعيش بينهم، وأن يحيا وسطهم، لم يفكروا لحظةً في مماته، والآن قد رحل، فماذا يفعلون، إنهم يتصبرون لفراقه، ويخضعون لقضاء الله، لكن رثاءهم في أنفسهم آكد الآن، أي هَمٍّ هذا الذي أصابهم، أيتشردون من جديد وتعود المقاتلة بين الأوس والخزرج علىٰ دابة أو مسابقة؟

ماذا يحدث لو هجم المرتدون علىٰ المدينة؟

ماذا لو نقض اليهود عهدهم؟

ماذا لو هجم الفرس أو الروم علىٰ بلادهم؟

من يأخذ قرار الحرب من عدمه؟

من يجهز الجيوش ويعد العدة ويستنفر الناس؟

Scanned by CamScanner

ماذا يحدث لو أخرج المنافقون في المدينة رجلاً منهم وبايعوه على الخلافة، وبايعته قبيلته وقبائل أخرى؟

ماذا لو اختارت كل قبيلة من القبائل المختلفة، التي تكون دولة الإسلام الآن زعيمًا لها من أبنائها وتفرق المسلمون أحزابًا وشيعًا؟

من يجمع ومن يوحد؟

العرب الآن ستستهدفهم بالقتال؛ لأنهم هم الذين نصروا محمدًا ﷺ، هم الذين قاتلوا هنا وهناك في بقاع مختلفة من الجزيرة العربية، وليس لهم الشرف الذي كان في قريش. حتى قريش ذاتها ستحاربهم بعد ذلك، فإن لم يكن لهم قوة الحكم والسلطان فقد يُسْتأصلوا إذا تحزبت ضدهم قبائل العرب.

وبات من المحتمل المؤكد أن المهاجرين سيعودون إلى بلدهم الأصلي، إلى مكة التي تركوا فيها ديارهم، وأرضهم، وأموالهم التي صادرها المشركون، الآن أسلم المشركون، ومن حقهم العودة إلى بلادهم؛ لأخذ ما صودر منهم هناك، ومن حقهم أن يعودوا للذكريات الأولى، والعائلات الأصلية في مكة وما حولها.

فإذا كان رجوع المهاجرين وشيكًا، فإن الحاجة ماسة لاستقرار الدولة الإسلامية أن يكون قائدها من أهل العاصمة

Scanned by CamScanner

بعد أن تخلو من مهاجريها؟ أليس أهل المدينة أدرىٰ بشعابها ودروبها وإدارتها؟ لا بد أن يكون الرئيس الجديد من بينهم.

هم أصحاب البلد، وأكثريتها، وملاكها، أرض آبائهم وأجدادهم، فلماذا يوضع علىٰ كرسي الحكم من هو خارج عن البلد؟

لا بد أن يكون الحاكم من الأنصار.

❁❁❁

اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة بن كعب بن الخزرج، بمدينة الرسول ﷺ وكانت دار ندوتهم، وأرادوا عقد الإمامة لأحدهم، ولأول مرة تجتمع كلمتهم، أوسهم وخزرجهم فاختاروا سعد بن عبادة زعيمًا للمسلمين، وخليفة لرسول الله.

وسعد بن عبادة هو زعيم الخزرج، ولم يجد الأوس حرجًا في أن يقدموا زعيم الخزرج للخلافة فقد تراجعت قوَّتهم السياسية بعد وفاة زعيمهم سعد بن معاذ، ووقفوا جميعًا وراء سعد بن عبادة ولم يطرحوا اسمًا بديلاً، بل قبلوا به دونما أدنىٰ جدل، وهذه ولا شك فضيلة إيمانية عالية، فمنذ سنوات معدودات، وقبل قدوم الرسول ﷺ إلىٰ المدينة كانت الحروب علىٰ أشدها بين الأوس والخزرج

وآخرها يوم بعاث، والذي حدثت فيه مقتلة عظيمة بين الطرفين، أما الآن فقد تغيرت نفوس الأنصار، وتركت حظ نفسها، وما عادت تفكر إلا في مصلحة هذا الدين.

❁❁❁

رأىٰ أحد المهاجرين هذا الجمع من الأنصار في السقيفة، فأسرع إلىٰ بيت رسول الله ﷺ، وكان بداخله آنذاك أبو بكر، وعمر، وغيرهم، نادىٰ الرجل علىٰ عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال: اخرج إليَّ يا ابن الخطاب.

قال عمر: إليك عني فإنا عنك مشاغيل.

كانوا منشغلين بالمصاب الفادح، في بيت رسول الله ﷺ وحوله، وكانت أمامهم قضايا الغسل، والتكفين، ثم الدفن، لكن الرجل أصر علىٰ عمر، فخرج له، فقال الرجل:

- إنه قد حدث أمر لا بد منك فيه، إن الأنصار قد اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة، فأدركوهم قبل أن يُحدثوا أمرًا.

تسلل الخوف إلىٰ عُمر أن يُحدث الأنصار بيعة لا يرضىٰ عنها المهاجرون، فإما أن يبايعوا علىٰ ما لا يرضون، وإما أن يرفضوا البيعة، وفي هذا فساد وفرقة، فأسرع إلىٰ الصديق أبي بكر، وأخبره بالأمر وقال له:

- انطلق بنا إلىٰ إخواننا من الأنصار.

Scanned by CamScanner

فانطلق هو وأبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وفي الطريق لقي أبو بكر وعمر رجلين من الأنصار القدامى، ممن شهدوا بيعة العقبة الثانية، وشهدوا كل معارك رسول الله هما عوين بن ساعدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومعن بن عدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلما رأيا أن الصديق وعمر ذاهبان إلى السقيفة نصحوهما بألا يقربا السقيفة، وليقضوا أمرهم -أي المهاجرين- فيما بينهم، خشية من حدوث فتنة بين المهاجرين والأنصار فأرادا أن يصرفاهما، لكن الصديق وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أصرا على الذهاب إلى السقيفة، وكان المغيرة بن شعبة بجانبهم في الطريق فسمع قول عويم ومعن، فقال لأبي بكر وعمر: أيها الشيخان إن الناس إنما ينظرون إليكما وليس يرون لهذا الأمر أحدًا غيركما، فليضرب أحدكما على يد صاحبه قبل أن يحدث ما يتفاقم له الأمر، فأخذ عمر بيد أبي بكر ليبايعه، فكره ذلك أبو بكر، واجتَمَعَ المهاجِرُون يتَشاوَرُون ونظر أبو بكر إلى الناس، ورفض أن تكون البيعة من دون الأنصار، فقال لعمر:

- قم بنا إلى إخواننا الأنصار، فإنَّ لَهُم في هذا الحَقِّ نَصِيبًا فإنه كان من آخر عهد رسول الله ﷺ أن أوصانا بهم.

وفي الطريق لقيا أبا عبيدة بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فأخذاه معهما، وانطلق الثلاثة بعفوية دون ترتيب إلى حيث السقيفة واجتماع الأنصار.

Scanned by CamScanner

وكان سعد مريضًا، يجلس وهو مزمل بثوبه وقد أثنوا له وسادة وعصبوا رأسه، لا يكاد يُسمع صوته، فأراد أن يتكلم بعد اختياره، فلم يقدر علىٰ إسماع القوم جميعًا، فكان يُبلغ ابنه بالكلام، ويتحدث ابنه إلىٰ الناس، فقال سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد أن حمد الله وأثنىٰ عليه بما هو أهله:

«يا معشر الأنصار..

لكم سابقة في الدين، وفضيلة في الإسلام، ليست لقبيلة من العرب.

إن محمدًا ﷺ لبث بضع عشر سنة في قومه يدعوهم إلىٰ عبادة الرحمن وخلع الأوثان، فما آمن به من قومه إلا رجال قليل، ما كانوا يقدرون علىٰ أن يمنعوا رسول الله ﷺ، ولا أن يعزوا دينه، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيمًا عموا به، حتىٰ إذا أراد الله بكم الفضيلة، ساق إليكم الكرامة.

وخصكم بالنعمة، فرزقكم الله الإيمان به، وبرسوله، والمنع له، ولأصحابه والإعزاز له، ولدينه، والجهاد لأعدائه، فكنتم أشد الناس علىٰ عدوه منكم، وأثقلهم علىٰ عدوه من غيركم.

حتىٰ استقامت العرب لأمر الله طوعًا وكرهًا، وأعطىٰ البعيد المقادة صاغرًا داخرًا.

Scanned by CamScanner

حتىٰ أغنىٰ الله عَزَّوَجَلَّ لرسوله بكم الأرض، ودانت له بأسيافكم العرب.

فتوفاه الله وهو عنكم راضٍ، وبكم قرير العين. استبدوا بهذا الأمر فإنه لكم دون الناس».

فاجابوه جميعاً أن قد وفقت في الرأي وأصبت في القول وكفىٰ بعد ذلك ما رأيت بتوليتك هذا الأمر فأنت مقنع ولصالح المسلمين رضي.

استطاع سعد بهذه الخطبة القصيرة أن يرفع الحالة المعنوية للأنصار بعد المصاب الفادح بوفاة رسول الله ﷺ، ونفىٰ الإحباط واليأس عنهم، ودعاهم إلىٰ استمرار المسيرة كما بدءوها، والثبات علىٰ أمر هذا الدين.

مع تأكيده علىٰ أحقية الأنصار في الخلافة، فيما يبدو لهم من حيث إنهم الذين نصروا، وآووا، وقاتلوا العرب، ومكنوا للدين.

وفي هذه الأثناء وقبل أن يتناول الأنصار عقد البيعة ولم يكد سعد بعد ينتهي من خطبته، دخل الصديق أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومعه عمر بن الخطاب، وأبو عبيدة بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ورآهم الأنصار، فما كان إلا الصمت، هدوء وترقب، فقد أدرك الأنصار أن وجود هؤلاء المهاجرين الثلاثة قد يغير من

Scanned by CamScanner

الأمور، ويحدث ما لا يريدونه، فقام ثابت بن قيس خطيب الأنصار يريد أن ينهي المسألة قبل أن يتكلم المهاجرون، فتشهد وأثنىٰ علىٰ الله بما هو أهله ثم قال:

- أما بعد، فنحن أنصار الله، وكتيبة الإسلام، وأنتم معشر المهاجرين رهط منا.

وكأنه التقط أن المهاجرين سيريدون الخلافة فيهم، فأسرع يبطل حجة المهاجرين بأنهم أعداد قليلة بالنسبة للأنصار، تلميحًا أن الخلافة يجب أن تكون في العدد الأكبر.

ثم قال:

- وقد دفت دافة من قومكم -أي جاءت مجموعة قليلة من المهاجرين- فإذا هم يريدون أن يختزلونا من أصلنا -أي يستثنونا من الخلافة في بلادنا- وأن يحصنونا من الأمر -أي يخرجونا منه- ثم سكت.

لقد صرح ثابت بن قيس الآن بشيء لا بد أن يحدث بعده جدال طويل، فقد قال صراحة إنكم أيها المهاجرون، ويقصد أبا بكر وعمر وأبا عبيدة قد جئتم لتخرجونا من أمر الخلافة علىٰ بلدنا، فكيف يكون هذا؟

ها قد جاء موقف يقول فيه المسلمون: نحن الأنصار، ونحن المهاجرون، والنبي لم يوارَ التراب بعد.

Scanned by CamScanner

وهـذا أمـر خطيـر، ورسـول الله ﷺ نهىٰ عـن ذلـك تمامًا ونهـىٰ عــن دعــوىٰ الجاهليــة، والقبليــة، ونهــىٰ عــن فـساد ذات البين.

فأرد عمر بن الخطاب أن يتكلم، وقد هيأ الرد، لكن أبا بكر خاف من اندفاعه وحدته ولا بد من الحكمة الشديدة، والحــرص البــالغ في معالجــة الموقــف، وهــو مــا زال في بدايته، فقال أبو بكر: علىٰ رسلك.

فتكلم أبو بكر، فأنصت الجميع له، فبدأ أبو بكر، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ:

- إن الله بعث محمدًا رسولًا إلىٰ خلقه، وشهيدًا، علىٰ أمته ليعبدوا الله ويوحدوه، وهم يعبدون من دونه آلهة شتىٰ، ويزعمون أنها لهم عنده شافعة، ولهم نافعة وإنما هي من حجر منحوت، وخشب منجور.

ثم قرأ: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس:١٨] وقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر:٣]. وأردف:

- فعظم علىٰ العرب أن يتركوا دين آبائهم، فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه، والإيمان به، والمواساة له، والصبر معه علىٰ شدة أذىٰ قومهم لهم، وتكذيبهم إياهم،

Scanned by CamScanner

وكل الناس لهم مخالفٌ زَارٍ عليهم، فلم يستوحشوا لقلة عددهم، وشَنَفِ الناس لهم، وإجماع قومهم عليهم، فهم أول من عبد الله في الأرض، وآمن بالله والرسول، وهم أولياؤه وعشيرته، وأحق الناس بهذا الأمر من بعده، ولا ينازعهم ذَلِكَ إلا ظالم.

ثم توجه مخاطبًا الأنصار:

- أنتم يا معشر الأنصار مَنْ لا يُنْكَرُ فضلهم في الدين، ولا سابقتهم العظيمة في الإسلام، رضيكم الله أنصارًا لدينه ولرسوله، وجعل إليكم هجرته وفيكم جلة أزواجه وأصحابه فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا تُفَاوَتُونَ بمشورة، ولا تقضىٰ دونكم الأمور.

وهكذا مضىٰ أبو بكرٍ فلم يدع شيئًا أُنزل في الأنصار، أو ذكره رسول الله ﷺ إلا ذكره، ثم قال:

- لقد علمتم أن رسول الله ﷺ قال: «**لَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا وَسَلَكَ الأَنْصَارُ وَادِيًا، لَسَلَكْتُ وَادِيَ الأَنْصَارِ**».

وما ذكرتم فيكم من خير فأنتم أهله، وإنا والله يا معشر الأنصار ما ننكر فضلكم، ولا بلاءكم في الإسلام، ولا حقكم الواجب علينا.

بهذه المقدمة اللطيفة احتوىٰ الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الأنصار،

Scanned by CamScanner

وأشاع جوًّا من السكينة في السقيفة، ووسع في صدر الأنصار، وأعطىٰ لكل ذي قدر قدره. وبعد أن شعر أبو بكر بالسكينة تسكن النفوس من جديد، استأنف قائلًا:

- ولكن العرب لا تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، وهم أوسط العرب دارًا وأنسابًا.

أراد أن يوضح بهدوء للأنصار أن الحكمة تقتضي أن تكون الخلافة في قريش؛ لأن العرب لن تسمع وتطيع إلا لهم، فمنهم النبي ﷺ، وهم أوسط العرب نسبًا وأكثر العرب قربًا لقلوب العرب؛ لمكانة مكة الدينية في قلوب الناس، فإذا كان الخليفة من قريش اجتمع العرب عليه مهما اختلفت قبائلهم، وإن كان من غيرهم لم يقبلوا به مهما كان هذا الخليفة رجلاً صالحًا عادلاً تقيًّا، ليس تقليلاً أو تهميشًا للأنصار، فإنهم فعلاً أهل الفضل، وأنصار الإسلام وليست القضية هي حكم المدينة المنورة فقط، حتىٰ يختاروا حاكمًا من أهلها عليها، ولكن يجب أن يوسع الأنصار مداركهم؛ ليفقهوا أن هذا الخليفة المنتخب يجب أن يسمع له ويطيع كل العرب، ثم كل الأرض بعد ذلك.

ثم خلع أبو بكر نفسه من الأمر، فأخذ بيد عمر بن الخطاب وبيد أبي عبيدة بن الجراح، وهو جالس بينهما، وقال:

Scanned by CamScanner

- وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيهما شئتم.

وأصبح في السقيفة رأيان، رأي يؤيد مرشحًا من الأنصار، ويقف وراءه معظم رءوس الأنصار في المدينة، ورأي يؤيد مرشحًا من قريش ويقف وراءه ثلاثة فقط من المهاجرين.

قام الحُباب بن المنذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يعرض رأيًا وسطًا بين الرأيين، يُرضي جميع الأطراف، فقال: أنا جُذَيْلُهَا الْمُحَكَّكُ، وَعُذَيْقُهَا الْمُرَجَّبُ[1].

يقصد أنه صاحب الرأي الذي سيأتي بما لا يختلف عليه أحد، فقال:

- منا أمير، ومنكم أمير.

كان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يفتل طرف شاربه بيده وشفتاه مبتعدتان وهو يسمع رأي الحُباب، فأجابه:

- سَيْفَانِ فِي غِمْدٍ وَاحِدٍ إِذن لاَ يَصْطَلِحَانِ.

- يا معشر المهاجرين إن رسول الله ﷺ كان إذا استعمل رجلاً منكم قرن معه رجلاً منا، فنرى أن يلي هذا

---

(١) أي: أنا سأشفيكم برأيي كما تستشفى الإبل الجربى بالاحتكاك بالجُذَيل، وهو عود ينصب للإبل لتحتك به إذا كان بها جرب. فهو كثيرٌ ما يُعتمد عليه كما تعتمد النخلة (العُذَيْقُ) إذا أسندتها إلى خشبة ذات شعبتين.

Scanned by CamScanner

الأمر رجلان منا ومنكم.

- هيهات، لا يجتمع اثنان في قرن، والله لا ترضىٰ العرب أن يؤمروكم، ونبيها من غيركم، ولكن العرب لا تمتنع أن تولي أمرها من كانت النبوة فيهم، ولنا بذلك علىٰ من أبىٰ من العرب الحجة الظاهرة، والسلطان المبين.

كان الأنصار ينظرون إلىٰ الخلافة من زاوية محدودة بظروف المجتمع المدني والعلاقة التأريخية بين المهاجرين والأنصار، أما المهاجرون فنظروا نظرة واسعة علىٰ مستوىٰ الدولة كلها وما يترتب علىٰ خروج السلطة من قريش من عواقب كبيرة؛ لأن العرب يمكن أن ترضىٰ بقيادتها لمكانتها فيهم، أما لو تولاها الأنصار فقد تقع انشقاقات خَطِرة تؤدي إلىٰ تفكك الدولة الإسلامية.

وهذا ما أكده عمر في جملته الأخيرة، وقد سيطر عليه الغضب وبدأ صوته يحتد ويرتفع، فتابع:

- من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته، ونحن أولياؤه، وعشيرته، إلا مُدلٍ بباطل[1]، أو مُتَجانِف لإثم، أو متورط في هلكة.

---

(١) مدل بباطل: أي فيه جراءة وعلامة علىٰ الباطل، ومتجانف: أي متمايل متعمد.

Scanned by CamScanner

فقام الحباب بن المنذر منفعلًا:

- يا معشر الأنصار املكوا على أيديكم، ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر، فإن أبوا عليكم ما سألتموه، فاجلوهم عن هذه البلاد، وتولوا عليهم هذه الأمور، فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم، فإنه بأسيافكم دان لهذا الذين من دان ممن لم يكن يدين.

فتكلم أحد الأنصار، وأراد أن يجعل آلية أخرى لتداول الخلفاء بين المهاجرين والأنصار، فقال:

- أولاً نختار رجلاً من المهاجرين، وإذا مات اخترنا رجلاً من الأنصار، فإذا مات اخترنا رجلاً من المهاجرين، كذلك أبدًا، فيكون أجدر أن يشفق القرشي إذا زاغ، أن ينقض عليه الأنصاري، وكذلك الأنصاري إذا زاغ أن ينقض عليه القرشي.

انتفض عُمر فقال في قوة وحدّة:

- لا والله، لا يخالفنا أحد إلا قتلناه.

فثارت ثائرة الأنصار، فالنفس العربية لا تقبل التهديد، خاصةً لو كانت هذه النفس لفارس، فقام فارس الأنصار الحباب بن المنذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأعاد وكرر رأيه:

Scanned by CamScanner

- منا أمير، ومنكم أمير. ولن نرضىٰ بدون هذا الأمر أبدًا.

ولم يستطع أن يمنع لسانه فتفلتت منه:

- وإن شئتم كررناها خُدعة.

أدرك الحباب أن لسانه ذل، وأنه الرجل ذو الرأي الحكيم، فخفت من صوته ثم صرح بما يعتمل في نفسه وما يقلق الأنصار جميعًا، فأردف:

- فَإِنَّا والله مَا نَنْفَسُ هذا الأمر عليكم أيها الرهط، ولكنا نخاف أن يَلِيَهُ أقوام قتلنا آباءهم وإخوانهم.

قال عُمَرُ:

- إِذَا كَانَ ذَاكَ، قُمْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ.

فقام ثابت بن قيس، فقال:

- نعم أنتم أول من آمن به وصدقه، وأنتم أقرباؤه وقومه، وأفضل الناس حَسَبًا ونسبًا، لا يحسدكم والله علىٰ ما آتاكم الله، ولا خلق الله أحدًا أحب إلينا وأكرم منكم، فلو جعلتم رجلًا منا ورجلًا منكم كان أشفق للقرشي إذا زاغ مخافة أن ينقض عليه الأنصاري، وكان أشفق للأنصاري إذا زاغ مخافة أن ينقض عليه القرشي، وقد كانت منا فيكم دماء، ولا نأمن الوالي منكم أن يميل علىٰ السيد منا فيقتله أو يصرفه.

- إن العرب لا ترضىٰ بهذا، ولا تقرُّ به إلا لقريش.

Scanned by CamScanner

أجابه عمر وقد سكن بعض الشيء، ثم قال بصوت جهوري وقد تلاحق المهاجرون على السقيفة:

- وأنا أنشد الله رجلًا سمع رسول الله ﷺ يقول: «الْأُمَرَاءُ مِنْ قُرَيْشٍ».

قالوا: بلى الآن ذكرنا.

فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾ [النحل:٩٢]، ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران:١٠٣].

فَتكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ وأخذ عهدًا، فَقَال: نَحْنُ الأُمَرَاءُ وَأَنْتُمُ الْوُزَرَاءُ، وَهَذَا الأَمْرُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ نِصْفَيْنِ كَشِقِّ الأُبْلُمَةِ(١).

سكن اللغط بعض الشيء، وسعد بن عبادة ساكت يشغله مرضه وألمه، والأنصار يتناجون فيما بينهم، فأطلق أبو عبيدة ابن الجراح سهمًا استقر في قلوب الأنصار قلبًا قلبًا، فإذا كان حديث العقل، والحجة، والبرهان يُقَسّي القلوب أحيانًا، فإن لحديث الوجدان والروح سكنًا للنفوس وطمئنية للقلب، ليتكلم أبو عبيدة بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الرجل الرصين، الهادئ، أمين الأمة، قال:

---

(١) يَعْنِي: الْخَوْصَةَ.

Scanned by CamScanner

- يا معشر الأنصار، إنكم أول من نصر وآزر، فلا تكونوا أول من بَدّل وَغيّر.

جملة من سطر واحد، نزلت بالسكينة علىٰ السقيفة في لحظة، فزلزلت كيان الأنصار، وهزت مشاعرهم هزًّا عنيفًا.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٧٤ ﴾ [الأنفال:٧٤].

(يا رسول الله، اقسم بين إخواننا النخيل/ رضينا برسول الله قسمًا/ يا رسول الله خذ لنفسك ولربك ما أحببت / نبايعك يا رسول الله علىٰ السمع والطاعة في عسرنا، ويسرنا، ومنشطنا ومكرهنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله/ فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك؟ الْجَنَّةُ ابسط يدك، فبسط يده فبايعوه).

ارتفع بهم أبو عبيدة بجملته الأخيرة من مواقع البشر والأرض، إلىٰ مصاف الملائكة والسماء، فدارت مخيلتهم بذكريات لم يمض إلا ساعات عليها، تذكروا البيعة الخالدة، تذكروا الهجرة، تذكروا النصرة، تذكروا الجهاد، تذكروا الشهادة، تذكروا إخوانًا قدموا أرواحهم، وسبقوا صادقين، ما بدلوا وما غيروا.

أفاقوا جميعًا علىٰ حقيقتهم العجيبة، أن الله خلقهم

Scanned by CamScanner

ليعطوا ويعطوا ويعطوا، أنهم النسمة الرقيقة الحانية التي تأتي بالخير، ولا تأخذ شيئًا.

وانهمرت دموع الأنصار تفيض على الحاضرين جميعًا رحمة وأمنًا، وقام بشير بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الأنصاري الخزرجي مسرعًا ملبيًا لنداء أبي عبيدة، وكان شيخًا كبيرًا ممن شهد العقبة الثانية، فقال:

- يا معشر الأنصار، إنا والله لئن كنا أولي فضيلة في جهاد المشركين، وسابقة في هذا الدين، ما أردنا به إلا رضاء ربنا، وطاعة نبينا، والكدح لأنفسنا، فما ينبغي أن نستطيل بذلك، ولا نبتغي به من الدنيا عرضًا، فإن الله ولي النعمة، وولي المنة علينا بذلك، ألا إنَّ محمدًا ﷺ من قريش، وقومه أحق به وأولى، ولا يراني الله أنازعهم في هذا الأمر أبدًا، فاتقوا الله، ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم.

وتغير بالكلية خط الحوار في السقيفة، وبدأ الجميع يهدأ نفسًا، وظهر أن حجة المهاجرين أصبحت أعلى، لكن هذه الحجة ما كانت لتقنع الأنصار لولا أن قلوبهم مؤمنة، ولولا أن غايتهم الجنة.

فقام زيد بن ثابت وهو من الخزرج الذين بايعوا سعدًا، فقال: إن رسول الله ﷺ كان من المهاجرين وإنما الإمام يكون

من المهاجرين ونحن أنصاره كما كنا أنصار رسول الله ﷺ.

وهكذا هدأت النفوس أكثر وازداد توحد المسلمين في رأي واحد.

فقام أبو بكر فقال:

- جزاكم الله خيرًا من حي يا معشر الأنصار وثبت قائلكم. والله لو فعلتم غير ذلك لما صالحناكم.

وأضحىٰ الناس جميعًا يتكلمون في هذا الاتجاه، والصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يرقب الموقف في ذكاء، ويتابع الأحداث في فطنة لا تخلو من روية، في هذا الوقت، وقد وضح أن الأنصار قد اقتنعوا عقليًّا وقلبيًّا بأن المصلحة العليا للأمة تقتضي أن يكون الخليفة من المهاجرين، وبالذات من قريش، في هذا الوقت الذي قامت فيه الأدلة، وتظاهرت علىٰ إقناع الأنصار كرر أبو بكر مقالته، فَقَالَ: هذا عمر، وهذا أبو عبيدة، فأيهما شئتم فبايعوا.

فقال عمر: بل نبايعك أنت فأنت سيدنا وخيرنا وأحبنا إلىٰ رسول الله ﷺ.

وقال أبو عبيدة: لا والله لا نتولىٰ هذا الأمر عليك، فإنك أفضل المهاجرين وثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ، وخليفة رَسُولِ اللهِ علىٰ الصلاة، والصلاة أفضل دين الْمُسْلِمِين،

فمن ذا ينبغي لَهُ أن يتقدمك أو يتولىٰ هذا الأمر عليك!

فقال عمر: ابسط يدك نبايعك..

فلما ذهبا ليبايعاه، سبقهما إليه بشير بن سعد، فبايعه، فناداه الحباب بن المنذر متعجبًا من مسارعته:

- يا بشير بن سعد، ما أحوجك إلىٰ ما صنعت، أنَفِسْتَ علىٰ ابن عمك الإمارة!

- لا والله، ولكني كرهت أن أنازع قومًا حقًا جعله الله لهم.

فقال عمر: يا معشر الأنصار ألستم تعلمون أن رسول الله قد أمر أبا بكر أن يؤمَّ الناس، فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؟

فقالت الأنصار: نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر.

ثم أخذ زيد بن ثابت بيد أبي بكر فقال: هذا صاحبكم فبايعوه.

فأقبل الناس من كل جانب يبايعون أبا بكر، وكادوا يطئون سعد بن عبادة وهو لا يكاد يتحرك من التعب، فقال قائل من أصحابه: قتلتم سعد بن عبادة[١].

---

(١) أَيْ: كِدْتُمْ تَقْتُلُونَهُ.

فسمعها عمر وكان مغضبًا، فقال: قَتَلَ اللهُ سَعْدًا فَإِنَّهُ صَاحِبُ فِتْنَةٍ وَشَرٍّ.

فقال أبو بكر: مهلًا يا عمر! الرفق هاهنا أبلغ.

وَتَتَابَعَ الْقَوْمُ عَلَىٰ الْبَيْعَةِ، وَبَايَعَ سَعْدٌ، وهو يقول: إِنَّكُمْ يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ حَسَدْتُمُونِي عَلَىٰ الإِمَارَةِ، وَإِنَّكَ وَقَوْمِي أَجْبَرْتُمُونِي عَلَىٰ الْبَيْعَةِ.

فقال عمر: إِنَّا لَوْ أَجْبَرْنَاكَ عَلَىٰ الْفُرْقَةِ فَصِرْتَ إِلَىٰ الْجَمَاعَةِ كُنْتَ فِي سعه، ولكنا اجبرنا عَلَىٰ الْجَمَاعَةِ، فَلا إِقَالَةَ فِيهَا، لَئِنْ نَزَعْتَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ، أَوْ فَرَّقْتَ جَمَاعَةً، لَنَضْرِبَنَّ الذي فيه عيناك.

وخشي أبو بكر أن يحتدم الموقف ثانيةً، فكشف الورقة الأخيرة في جعبته، وألقىٰ بالدليل الدامغ، والحجة الظاهرة البينة التي ما تركت شكًّا في قلب أحد، ولا أبقت ريبة في نفس أنصاري أو مهاجري، كلمات معدودات لكنها أثقل من الذهب، فقال: لقد علمت يا سعد أن رسول الله ﷺ قال وأنت قاعد: «قُرَيْشٌ وُلاةُ هَذَا الأَمْرِ، فَبَرُّ النَّاسِ تَبَعٌ لِبَرِّهِمْ، وَفَاجِرُ النَّاسِ تَبَعٌ لَفَاجِرِهِمْ».

كان أبو بكر يعلم موقف سعد الحرج، ويعذره في مقالته، فمنذ ساعة، أو ساعتين كان مرشحًا للخلافة، وكان ذلك في

Scanned by CamScanner

ظنه وظن الأنصار في حكم المؤكد، والآن الوضع ينقلب مائة وثمانين درجة، ولا بد أنه الآن يفكر، ويفكر، ويعقد الموازنات، ويقارن الحجج والأدلة، ويشاور عقله وقلبه، لا بد أن هناك صراعًا نفسيًّا داخليًّا في داخله، أتراهم فعلاً على حق يستنبطون أن الخليفة من قريش أم يكون الرأي الصائب هو رأي الأنصار الأول؟

أفكار متزاحمة، والرجل مريض، ومرهق، لم يتكلم منذ دخل أبو بكر وعمر وأبو عبيدة، لا بد أن الحيرة تملأه.

لكن ما أن استعاد قول النبي في مسمعه وقلبه، إذا به يهدأ ويقبل بحكم رسول الله، فقال في رضىً واستسلام:

- صدقت، أنتم الأمراء، ونحن الوزراء.

هكذا في كل يُسر، قطع سعد بن عبادة بخلافة قريش دون الأنصار، وهدأت السقيفة.

لا جدل، ولا كلمة، ولا أخذ للحديث على محمل آخر..

كم من الدماء حقنت! ولو شاء لسالت أنهارًا في شوارع المدينة..

كم من الأرواح حفظت! ولو شاء لقتلت بالآلاف..

أيّ فتنة قمعت!

وأيّ وحدة حدثت!

Scanned by CamScanner

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب:٣٦].

وسكنت السقيفة وذهب الخلاف نهائيًا، واستقر الناس جميعًا علىٰ أبي بكر.

وجاء علي بن أبي طالب مهرورًا في قميصٍ ما عليه إِزَارٌ وَلا رِدَاءٌ، فقد وصل إليه خبر بيعة الصديق فتعجل في ثيابه كَرَاهِيَةَ أَنْ يُبْطِئَ عَنْهَا، وبايع أبا بكرٍ وَبَعَثَ إِلَىٰ ثَوْبِهِ فَأَتَاهُ فَتَجَلَّلَهُ.

واستطاع أبو بكر أن يفرض نفسه بنفسه من واقع شخصيَّته الهادئة والمعتدلة والمقبولة من الجميع، بالإضافة إلىٰ حبِّ النبيِّ ﷺ له، وقربه منه، وأسبقيَّته في الإسلام. وقد ساعده عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ حيث قام بالحركة الأولىٰ للاعتراف به، وشكَّل معه ثنائيًّا لا يقبل الانفكاك، كما ارتبطا مع الأنصار برباط المصاهرة، ويبدو أنَّ انتماءهما لعشائر قرشيَّةٍ صغيرة طمأن الأنصار إلىٰ كونهما لا يحكمان بالاعتماد -أكثر- علىٰ عشائر قريشٍ القويَّة، وأنَّ سياستهما ستكون إسلاميَّةً قائمةً علىٰ السابقة في الإيمان والعقيدة أكثر ممَّا تقوم علىٰ روابط الدم.

Scanned by CamScanner

(٢٣)

في صباح الثلاثاء الثالث عشر من شهر ربيع الأول للسنة الحادية عشرة من الهجرة، جلس أبو بكر على المنبر واجتمع المسلمون إليه، كانت الليلة السابقة مرهقة جدًا على الصحابة، مصاب النبي، وتجهيزه للدفن، ومناقشة أمر الخلافة، واليوم اجتمع الناس جميعًا لينهوا ذلك الأمر بمشورة المسلمين جميعهم لا الذين اجتمعوا في السقيفة فقط، ولم يكن من بين الناس عليٌ ولا الزبير، فأرسل أبو بكر في طلبهما، وقام عمر قبل أبي بكر فتكلم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله. وأراد أن يعتذر عن مقولته أن محمدًا لم يمت، فقال:

- أيها الناس إني قد قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت مما وجدتها في كتاب الله، ولا كانت عهدًا عَهِده إليَّ رسول الله ﷺ، ولكني قد كنت أرى أن رسول الله ﷺ سيدبر أمرنا، ويكون آخرنا، وإن الله قد أبقى فيكم كتابه الذي به هدى الله رسولَه ﷺ، فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هدى له رسوله.

Scanned by CamScanner

إن الله قد جمعكم على خيركم، صاحب رسول الله ﷺ وثاني اثنين إذ هما في الغار، فقوموا فبايعوه.

وجاء علي بن أبي طالب، فعتب عليه أبو بكر تغيبه فقال: ابن عم رسول الله ﷺ وَخَتَنُهُ أردت أن تشق عصا المسلمين؟

فقال علي: لا تثريب يا خليفة رسول الله ﷺ فبايعه.

وحضر الزبير فلامه أبو بكر أيضًا فقال: ابنُ عَمَّةِ رسول الله ﷺ وَحَوَارِيُّهُ أردتَ أن تشق عصا المسلمين؟

فقال: لا تثريب يا خليفة رسول الله ﷺ فبايعه كذلك.

وقام أبو بكر على المنبر قائلًا:

أيها الناس، إن الذي رأيتم مني لم يكن حرصًا على ولايتكم، لكنيّ خفتُ الفتنةَ والاختلافَ، وقَدْ رددْتُ أمرَكُمْ إليْكُمْ، فولوُّا مَنْ شئْتُمْ.

أيها الناس، أذكركم الله أيما رجل ندم على بيعتي لما قام على رِجْلَيْهِ.

فَأَكَبَّ النَّاسُ كَأَنَّمَا صُبَّ عَلَىٰ رُءُوسِهِمُ السُّخْنُ، فَقَامَ إِلَيْهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَمَعَهُ السَّيْفُ، فَدَنَا مِنْهُ حَتَّىٰ وَضَعَ رِجْلًا عَلَىٰ عَتَبَةِ الْمِنْبَرِ وَالْأُخْرَىٰ عَلَى الْحَصَىٰ، فَقَالَ:

وَاللهِ لَا نُقِيلُكَ وَلَا نَسْتَقِيلُكَ، قَدَّمَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَمَنْ ذَا الَّذِي يُؤَخِّرُكَ.

Scanned by CamScanner

وقال الناس: لَا نُقِيلُكَ.

واجتمع كل من في المسجد كل يريد أن يبايعه، يجتمع عليه العصابة فيقول لهم: «بايعوني علىٰ السمع والطاعة لله ولكتابه ثم للأمير».

وبعد أن انتهىٰ القوم جميعًا من مبايعته، قام أبو بكر فتكلم، فحمد الله وأثنىٰ عليه بالذي هو أهله، ثم قال:

«أما بعد أيها الناس، فإني قد ولُيت عليكم، ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني.

الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم، قوي عندي حتىٰ أزيح علته إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف حتىٰ أخذ منه الحق إن شاء الله.

لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا يشيع قوم قط الفاحشة إلا عمهم الله بالبلاء.

أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله، فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلىٰ صلاتكم يرحمكم الله».

❁❁❁

عاد الناس إلىٰ النبي ﷺ فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه في المكان الذي قبض فيه من بيت عائشة.

Scanned by CamScanner

وجاءت فاطمة فقالت لأنس بن مالك:

- يا أنس، أطابت نفوسكم أن تحثوا علىٰ رسول الله التراب؟!

فقال والأسىٰ يعتصر قلبه:

- لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء. وما نفضنا عن النبي الأيدي حتىٰ أنكرنا قلوبنا.

وجاء رسول «فيروز» إلىٰ المدينة بالبشرىٰ يبحث عن النبي ﷺ، فأخبروه أن قد رحل إلىٰ ربه، فحزن لذلك وقص عليهم خبر العنسي، فأخبروه أن النبي أُوحي إليه فبشرهم في الوقت نفسه، ودعىٰ لفيروز الديلمي.

وضجت المدينة بالبكاء.

(٢٤)

ذاع خبر موت رسول الله في قبائل العرب، وتسامع بذلك الناس، فبدأ الجمر يتململ من تحت الرماد، وأخذت الأفاعي تطل برؤوسها من جحورها، وتجرأ الذين في قلوبهم مرض علىٰ الخروج من الدين، حتىٰ لم يبقَ علىٰ الإسلام إلا أهل

Scanned by CamScanner

مكة والمدينة والطائف وجماعات هنا وهناك ممن ثبَّت الله قلوبهم علىٰ الإيمان.

اتبع هؤلاء المتنبئين الكذابين الذين ادَّعوا النبوة بعد وفاة النبي ﷺ، منهم طليحة بن خويلد في بني أسْد، ومالك بن نويرة في بني تميم، وركب مسيلمة الموجة فهو رائد هذه الفكرة هو والأسود العنسي الذي قُتل في اليمن، وصار أصحاب محمد ﷺ كأنهم غنم مطيرة في ليلة شاتية بأرض سباع. إلا أن هذه الفتنة لاقت رجلًا شديدًا رغم ما يُعرف عنه من لين ورقة القلب، فكان أبو بكر لها بالمرصاد، لكن أبا بكر أغفل أمر المرتدين لأمر كان أهمَّ من وجهة نظره البصيرة.

❁❁❁

في اليوم الثالث من مُتَوَفَّىٰ رسول الله ﷺ أمر أبو بكرٍ رجلًا أن ينادي في الناس:

«ليتم بعث أسامة، ألا لا يبقين بالمدينة أحد من جند أسامة إلا خرج إلىٰ عسكره بالجرف».

ثم قام أبو بكرٍ في الناس فحمد الله وأثنىٰ عليه وقال:

«إن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما أريد به وجهه، فأريدوا الله بأعمالكم، فإنما أخلصتم لحين فقركم وحاجتكم، اعتبروا

Scanned by CamScanner

عباد الله بمن مات منكم، وتفكروا فيمن كان قبلكم، أين كانوا أمس وأين هم اليوم، أين الجبارون الذين كان لهم ذكر القتال والغلبة في مواطن الحروب؟ قد تضعضع بهم الدهر وصاروا رميمًا، قد توالت عليهم العالات، الخبيثات للخبيثين، والخبيثون للخبيثات، وأين الملوك الذين أثاروا الأرض وعمروها؟ قد بعدوا ونسي ذكرهم وصاروا كَلَّا شيء إلا أن الله عَزَّوَجَلَّ قد أبقىٰ عليهم التبعات وقطع عنهم الشهوات، ومضوا والأعمال أعمالهم والدنيا دنيا غيرهم، وبعثنا خلقا بعدهم، فإن نحن اعتبرنا بهم نجونا، وإن انحدرنا كنا مثلهم. أين الوضاءة الحسنة وجوههم المعجبون بشبابهم؟ صاروا ترابًا، وصار ما فرطوا فيه حسرة عليهم. أين الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط، وجعلوا فيها الأعاجيب؟ قد تركوها لمن خلفهم، فتلك مساكنهم خاوية وهم في ظلمات القبور: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾ [مريم:٩٨].

أين من تعرفون من آبائكم وإخوانكم؟ قد انتهت بهم آجالهم فوردوا علىٰ ما قدموا فحلوا عليه، وأقاموا للشقاوة أو السعادة بعد الموت، ألا إن الله لا شريك له ليس بينه وبين أحد من خلقه سبب يعطيه به خيرًا ولا يصرف به عنه سوءًا إلا بطاعته واتباع أمره، واعلموا أنكم عبيد مدينون وأن ما

Scanned by CamScanner

عنده لا يدرك إلا بطاعته، أما آن لأحدكم أن تحسر عنه النار ولا تبعد عنه الجنة».

اقترح بعض الصحابة على الصديق بأن يُبقي الجيش فقالوا:

- إن هؤلاء جل المسلمين، والعرب على ما ترى قد انتقضت بك فليس ينبغي لك أن تفرق عنك جماعة المسلمين.

ولكنَّ أبا بكر خالف ذلك وأصر على أن تستمر الحملة العسكرية في تحركها إلى الشام مهما كانت الظروف والأحوال والنتائج.

وأرسل أسامة من معسكره من الجرف عمر بن الخطاب إلى أبي بكر يستأذنه أن يرجع بالناس وقال:

- إن معي وجوه المسلمين وجلتهم ولا آمن على خليفة رسول الله ﷺ وحرم رسول الله ﷺ والمسلمين أن يتخطفهم المشركون.

لكن لم يزد ذلك في أبي بكر إلا إصرارًا وعزمًا، ولم يسترح أسامة وهيئة أركان حربه لإصرار الخليفة على رأيه، وقد بذلوا لدى الخليفة عدة محاولات كي يقنعوه بصواب فكرتهم، وعندما كثر الإلحاح على أبي بكر دعا عامة المهاجرين والأنصار إلى اجتماع لمناقشة هذا الأمر معهم،

Scanned by CamScanner

وفي هـذا الاجتمـاع دار نقـاش طويـل متـشعب، وكـان أشـد المعارضين لاستمرار حملة الشام عمر بن الخطاب، مُبديًا تخوفه الشديد علىٰ الخليفة وحرم رسول الله وكل المدينة وأهلها من أن تقع في قبضة الأعراب المرتدين المشركين.

وعندما أكثر وجوه الصحابة بهذا الصدد علىٰ الخليفة وخوفوه مما ستتعرض له المدينة من أخطار جسام إن هو أصر علىٰ تحريك جيش أسامة لغزو الروم، أمر بفض الاجتماع بعد أن سمع الصديق لرأيهم واستوضح منهم إن كان لأحدهم ما يقول، وذلك حتىٰ يعطي إخوانه وأهل الرأي كامل الفرصة لبيان رأيهم، ثم دعاهم إلىٰ اجتماع عام آخر في المسجد، وفي هذا الاجتماع طلب من الصحابة أن ينسوا فكرة إلغاء مشروع وضعه رسول الله ﷺ بنفسه، وأبلغهم أنه سينفذ هذا المشروع حتىٰ لو تسبب تنفيذه في احتلال المدينة من قبل الأعراب المرتدين، فقد وقف خطيبًا وخاطب الصحابة قائلًا:

«والذي نفس أبي بكر بيده، لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله ﷺ، ولو لم يبقَ في القرىٰ غيري لأنفذته».

وطلبت الأنصار رجلًا أقدم سنًّا من أسامة يتولىٰ أمر

Scanned by CamScanner

الجيش، وأرسلوا عمر بن الخطاب ليحدث الصديق في ذلك، فقال عمر لأبي بكر:

- إن الأنصار تطلب رجلًا أقدم سنًا من أسامة.

فوثب أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكان جالسًا فأخذ بلحية عمر، وقال له:

- ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب! استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن أنزعه!!

فخرج عمر إلىٰ الناس فقالوا: ما صنعت؟ فقال: امضوا ثكلتكم أمهاتكم! ما لقيت في سببكم من خليفة رسول الله خيرًا.

❁❁❁

خرج أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حتىٰ أتىٰ جيش أسامة فأشخصهم وشيعهم وهو ماشٍ وأسامة راكب، وعبد الرحمن بن عوف يقود دابة أبي بكر فارغة، فقال له أسامة:

- يا خليفة رسول الله ﷺ: والله لتركبن أو لأنزلن، فقال: والله لا تنزل ووالله لا أركب، وما عليَّ أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة..

ثم قال الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لأسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

- إن رأيت أن تعينني بعُمر فافعل.

Scanned by CamScanner

فأذن له أسامة، ثم توجه الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلىٰ الجيش فقال:

- يا أيها الناس، قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني:

لا تخونوا ولا تُغِلوا ولا تغدروا ولا تمثّلوا[١]، ولا تقتلوا طفلًا صغيرًا، ولا شيخًا كبيرًا ولا امرأة، ولا تعقروا نخلًا ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرًا إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون علىٰ قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منه شيئًا بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها. وتلقون أقوامًا قد فحصوا[٢] أوساط رءوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فأخفقوهم[٣] بالسيف خفقًا. اندفعوا باسم الله.

وأوصىٰ الصديق أسامة أن يفعل ما أمر به النبي الكريم ﷺ قائلًا:

- اصنع ما أمرك به نبي الله؛ ابدأ ببلاد قضاعة ثم إيتِ

---

(١) ولا تمثلوا: يقال: مثلت بالحيوان وأمثل به تمثيلًا، إذا قطعت أطرافه وشوهت به.

(٢) فحصوا: حلقوا.

(٣) فأخفقوهم: من أخفق فلانًا أي: صرعه.

Scanned by CamScanner

آبل[1] ولا تقصرن في شيء من أمر رسول الله ﷺ، ولا تعجلن لما خلفت عن عهده.

(٢٥)

خلَت المدينة في غُضون ذلك، من المُدافعين عنها باستثناء بضع مئاتٍ من المُهاجرين والأنصار. والواقع أنَّ خُروج أُسامة بن زيد إلىٰ الشَّام قد شتَّت القوَّة الإسلاميَّة النامية ممَّا شجَّع الخارجين علىٰ مُهاجمة المدينة، فقام طُليحة الأسدي بنشر أتباعه حولها، فأقام بعضهم في ذي القصة شرق المدينة، بقيادة حبَّال بن طُليحة، وأقام بنو مرّة بالأبرق في منازل بني ذبيان وكانوا بِقيادة عوف بن سِنان. وكان بنو عبس وبكر يقفون إلىٰ جانب هؤلاء المُرتدين. ثُمَّ أرسلوا وفودًا منهم إلىٰ المدينة المُنوَّرة ليُفاوضوا أبي بكرٍ الصدّيق علىٰ أساس أن يُقيموا الصلاة ولا يؤتوا الزكاة، واطَّلعوا في غُضون ذلك علىٰ الوضع الداخلي في المدينة ممَّا دفع أبا بكر إلىٰ تنبيه المُسلمين كي يأخذوا حذرهم.

وعادت وُفود أهل الرِّدَّة إلىٰ مُعسكرهم بعد أن رفض

---

(١) آبل: منطقة في جنوب بلاد الأردن اليوم.

Scanned by CamScanner

أبـو بكـر طلـبهم فيمـا يخـتص بالزكـاة، فأخـذوا يُـشجعون قـومهم علىٰ غـزو المدينـة بعـد أن لمـسوا قلّـة الجُنـد فيهـا وإمكانيَّة دُخولها.

وكـان أبـو بكـر مُـستعدًا لأيِّ هُجـوم قـد يشُنُّه أهـلُ الـرِّدَّة فأخذ يُقوّي دفاعات المدينة، وعهد إلىٰ عليّ بـن أبـي طالـب والزُبير بـن العـوَّام وسـعد بـن أبـي وقَّـاص وعبـدُ الرحمٰن بـن عوف وعبدُ الله بن مسعود، لِحراسة الطُرق الجبليَّة المُحيطة بها، فكانوا يبيتون مع رجالهم خارج المدينة استعدادًا وتأهُبًا.

وبعد ثلاثة أيَّام أغار أهلُ الرِّدَّة علىٰ المدينة المُنوَّرة ليلًا، وكان المُسلمون بانتظارهم فردّوهم علىٰ أعقـابهم. ثُـمَّ تبعهم أبو بكر أثناء الليـل، وعلـىٰ ميمنتـه النُعمـان بـن مقـرن المـزني، وعلىٰ ميسرته عبدُ الله بن مُقرن، وعلىٰ السَّاقة أخوهمـا سُـويد ابن مُقرن، وفاجـأهم عنـد الفجـر ليُنـزل بهـم الهزيمـة ويُولـون الأدبـار بعـد أن قُتـل حبَّـال بـن طُليحـة علـىٰ يـد عُكاشـة بـن مُحصن رَضِيَٱللَّهُعَنهُ.

❁❁❁

وفي الـيمن، علـىٰ الـرغم مـن وفـاة الأسـود العنـسي، فـإن أمورها اضطربت من جديد. طمع قيس بن مكشوح المـرادي في مُلك اليمن، فارتد عن الإسلام، وكاتـب أصـحاب الأسـود

Scanned by CamScanner

فأجابوه، ثم أعد قيس مكيدة لفيروز وداذويه، فدعاهما إلىٰ طعام، فسبق داذويه فيروز إلىٰ الوليمة، فانفرد به قيس وقتله. وفي طريقه إلىٰ الوليمة، سمع امرأتين تتحدثان عن مقتل داذويه، ففر إلىٰ أخواله بجبل خولان، وارتدت صنعاء عن الإسلام مجددًا. ثم لجأ قيس بن مكشوح إلىٰ إجلاء «الأبناء» عن اليمن.

وعندما وصل فيروز الديلمي إلىٰ خولان كتب من هناك إلىٰ أبي بكر يخبره بما حصل من قيس، فما كان منه إلا أن كتب إلىٰ الزعماء: «أعينوا الأبناء علىٰ من ناوأهم وحوطوهم، واسمعوا من فيروز، وجِدُّوا معه فإني قد وليته».

واكتفىٰ أبو بكر بذلك حتىٰ يتسنىٰ له مواجهة أعنف موجات الردة في اليمامة والبحرين وعمان وتميم، وهي أشد وأعنف من موجات الردة في اليمن التي اكتفىٰ بمعالجة بعضها بالرسائل والرسل.

❁❁❁

خرج أبو بكر من المسجد النبوي بعد أن أدىٰ صلاة العصر بالمسلمين وعلي بن أبي طالب يمشي إلىٰ جنبه وكان علي قد تغيب بعض الأيام الماضية، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ أبو بكر، فَوَجَدَ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، فَاحْتَمَلَهُ عَلَىٰ

Scanned by CamScanner

كَاهِلِـهِ، وَجَعَـلَ يَقُـولُ: بِـأَبِي شَـبِيهُ النَّبِـيِّ، لَـيْسَ شَـبِيهًا بَعَلِـيٍّ، وَعَلِيٌّ يَضْحَكُ.

فقال أبو بكر لعلي:

- ما لك تغيبت؟ أَكَرِهْتَ خِلاَفَتِي؟

- لَا، لَمْ أَكْرَهْ خِلاَفَتَكَ، وَلَكِنْ كَانَ الْقُرْآنُ يُـزَادُ فِيـهِ، فَلَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ جَعَلْتُ عَلَىٰ أَنْ لَا أَرْتَدِيَ إِلَّا إِلَىٰ الصَّلَاةِ حَتَّىٰ أَجْمَعَهُ لِلنَّاسِ.

- نِعْمَ مَا رَأَيْتَ.

ثم قال:

- فما بال فاطمة الآن؟

- لا تزال مريضة علىٰ حالتها.

- هل لي بزيارتها؟

- دعني أستأذنها يا خليفة رسول الله.

- أما زالت غضبىٰ؟

- إِنَّا قد عَرَفْنَا يا أَبَا بَكْرٍ فَضِيلَتَكَ.. ألم تقل لكَ: أَنْتَ وَمَا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللهِ.

- يا أبا الحسن، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَرَابَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ أَصِلَ مِنْ قَرَابَتِي.

Scanned by CamScanner

إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «لاَ نُورَثُ مَا تَرَكْنَا فَهُوَ صَدَقَةٌ، إِنَّمَا يَأْكُلُ آلُ مُحَمَّدٍ مِنْ هَذَا المَالِ، لَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَزِيدُوا عَلَىٰ المَأْكَلِ»، وَإِنِّي وَاللهِ لاَ أُغَيِّرُ شَيْئًا مِنْ صَدَقَاتِ النَّبِيِّ ﷺ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهَا فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، وَلأَعْمَلَنَّ فِيهَا بِمَا عَمِلَ فِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ.

- صدقت.

ودخل عليٌ داره فقال: يا فاطمة هذا أبو بكر يستأذن عليك؟

قالت : أتحب أن آذن له؟

قال: نعم.

فأذنت له فدخل عليها يترضاها، وقال:

والله ما تركت الدار والمال والأهل والعشيرة إلا ابتغاء مرضاة الله ومرضاة رسوله ومرضاتكم أهل البيت.

ثم ترضاها حتىٰ رضيت.

(٢٦)

مضت أربعون ليلة وعاد جيش أسامة ظافرًا غانمًا بعد ما أرهب الروم حتىٰ قال لهم هرقل وهو بحمص وقد جمع

Scanned by CamScanner

بطارقته: هذا الذي حذرتكم فأبيتم أن تقبلوا مني!! قد صارت العرب تأتي مسيرة شهر فتغير عليكم، ثم تخرج من ساعتها ولم تكْلَمْ.

ثم تعجب الروم بأجمعهم وقالوا: ما بال هؤلاء يموت صاحبهم ثم أغاروا علىٰ أرضنا؟

وأصاب القبائل العربية -في الشمال- الرعب والفزع من سطوة الدولة، وعندما بلغ جيش أسامة الظافر المدينة تلقاه أبو بكر وكان قد خرج في جماعة من كبار المهاجرين والأنصار للقائه، وتلقاه أهل المدينة بالإعجاب والسرور والتقدير، ودخل أسامة المدينة وقصد مسجد رسول الله ﷺ وصلىٰ لله شكرًا علىٰ ما أنعم به عليه وعلىٰ المسلمين، وكان لهذه الغزوة أثر في حياة المسلمين وفي حياة العرب الذين فكروا في الثورة عليهم، وفي حياة الروم الذين تمتد بلادهم علىٰ حدودهم، فقد فعل هذا الجيش بسمعته ما لم يفعله بقوته وعدده، فأحجم من المرتدين من أقدم، وتفرق من اجتمع، وهادن المسلمين من أوشك أن ينقلب عليهم، وصنعت الهيبة صنيعها قبل أن يصنع الرجال، وقبل أن يصنع السلاح.

حقًا، لقد كان إرسال هذا الجيش نعمة علىٰ المسلمين، إذ أمست جبهة الردة في الشمال أضعف الجبهات.

Scanned by CamScanner

قام أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الناس خطيبًا، فحمد الله وأثنىٰ عليه ثم قال:

«الحمد لله الذي هدىٰ فكفىٰ، وأعطىٰ فأعفىٰ. إن الله بعث محمدًا ﷺ والعلم شريد، والإسلام غريب طريد، قد رث حبله وخَلَق ثوبه وضل أهله منه، ومقت الله أهل الكتاب فلا يعطيهم خيرًا لخير عندهم، ولا يصرف عنهم شرًّا لشر عندهم، وقد غيروا كتابهم وألحقوا فيه ما ليس منه، والعرب الآمنون يحسبون أنهم في منعة من الله لا يعبدونه ولا يدعونه، فأجهدهم عيشًا وأظلهم دينًا، في ظلف من الأرض مع ما فيه من السحاب، فختمهم الله بمحمد وجعلهم الأمة الوسطىٰ، ونصرهم بمن اتبعهم، ونصرهم علىٰ غيرهم، حتىٰ قبض الله نبيه فركب منهم الشيطان مركبه الذي أنزل عليه، وأخذ بأيديهم، وبغىٰ هلكتهم: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤٤].

إن من حولكم من العرب قد منعوا شاتهم وبعيرهم، ولم يكونوا في دينهم -وإن رجعوا إليه- أزهد منهم يومهم هذا، ولم تكونوا في دينكم أقوىٰ منكم يومكم هذا علىٰ ما قد تقدم من بركة نبيكم، وقد وكلكم إلىٰ المولىٰ الكافي الذي وجده

ضالًا فهداه وعائلًا فأغناه: ﴿ وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ [آل عمران:١٠٣].

والله لا أدع أن أقاتل على أمر الله حتى ينجز الله وعده ويوفي لنا عهده، ويقتل من قتل منا شهيدًا من أهل الجنة، ويبقى من بقي منها خليفته وذريته في أرضه، قضاء الله الحق، وقوله الذي لا خلف له: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [النور:٥٥]».

فقام عمر مستنكرًا:

- كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله»**؟

- إنما قال رسول الله ﷺ: **«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاس حَتَّىٰ يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَـهَ إِلَّا الله وَأَنِّي رَسُولُ الله وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ»**.

- يا أبا بكر! أتريد أن تقاتل العرب؟

- لَأُقَاتِلَنَّ قَوْمًا ارْتَدُّوا عَنِ الزَّكَاةِ!

- كَيْفَ تُقَاتِلُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ وَهُمْ يُصَلُّونَ؟

- والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقًا أو عقالًا كانوا يؤدونها إلى

Scanned by CamScanner

رسول الله لقاتلتهم علىٰ منعها. ما تقول يا أبا الحسن؟

أجابه علي بن أبي طالب قائلًا:

- إنك إن تركت شيئًا مما كان أخذه منهم رسول الله، فأنت علىٰ خلاف سنة الرسول.

- أما لئن قلت ذاك لأقاتلنهم وإن منعوني عقالاً.

فعاد عمر إلىٰ مقالته:

- يا خليفةَ رسولِ الله، تَأَلَّفِ الناسَ، وارْفُقْ بهم.

- أَجَبَّار في الجاهلية وخَوَّار في الإسلام؟ إِنَّهُ قد انقطع الوحيُ، وتَمَّ الدِّينُ، أَيَنْقُصُ وأنا حَيّ؟

❁❁❁

خرج أبو بكر شاهرًا سيفه راكبًا راحلته ومعه الصحابة إلىٰ وادي ذي القصة؛ وذلك لقتال المرتدين والمتمردين، فهم ما زالوا متفرقين، كل في بلده، ولم يحصل منهم تحزب ضد المسلمين بالنسبة للقبائل الكبيرة المتباعدة في الأماكن أولًا، ولذلك أراد الصديق أن يعاجلهم بضربات مفاجئة تقضي علىٰ شوكتهم وقوتهم قبل أن يجتمعوا في نصرة باطلهم، وكان أقوىٰ المرتدين بأسًا وأكثرهم عددًا بنو حنيفة أصحاب مسيلمة الكذاب، فقد اجتمع لمسيلمة من قومه

Scanned by CamScanner

وحلفائهم أربعون ألفًا من أشداء المحاربين، بينما قلة من المؤمنين من أتباع ثُمامة أخذت تحاربهم تحت راية الإسلام، وكان المدد يأتي إلىٰ ثمامة من بني تميم، لكن فور ما أرتد منهم من ارتد، وقامت بينهم وبين من بقي علىٰ الإسلام الحروب، عادىٰ بنو تميم عشائرهم، فأضر ذلك ثمامة في حربه مع مسيلمة.

وجاء علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأخذ بزمام راحلة الصديق، فقال: إلىٰ أين يا خليفة رسول الله؟ أقول لك ما قال رسول الله ﷺ يوم أُحد: شِمْ سيفك ولا تفجعنا بنفسك، فوالله لئن أصبنا بك لا يكون للإسلام بعدك نظام أبدًا، وعرض عليه الصحابة أن يبعث غيره علىٰ القيادة، وأن يرجع إلىٰ المدينة ليتولىٰ إدارة أمور الأمة، وألحوا عليه بذلك.

(٢٧)

صمد أبو بكر لهذه الفتنة المدمرة العمياء، صمود الجبال الراسيات، واتخذ قرية (ذي القَصَّة) مركز انطلاق، وقاعدة تحرك للجيوش التي جهزها من المهاجرين والأنصار في إحدىٰ عشر جيشًا، وعقد لهذه الجيوش إحدىٰ عشر لواءً

Scanned by CamScanner

ليعيدوا المرتدين إلىٰ سبيل الهُدىٰ والحق، وليحملوا المنحرفين علىٰ الجادة ولو بحد السيف.

وقال وحشي بن حرب في نفسه:

- لَأَخْرُجَنَّ إِلَىٰ مُسَيْلِمَةَ لَعَلِّي أَقْتُلُهُ فَأُكَافِئَ بِهِ حَمْزَةَ.

وانضم وحشي إلىٰ جموع المسلمين الذين يعدون أهبتهم للغزو، وأخذ أبو بكر يُعبِّئ الجيوش، ويُعَيِّن القُوَّاد ويوجههم، وكأن الجزيرة العربية صورت مجسمًا واضحًا نصب عينيه في غرفة عمليات مجهزة بأحدث وسائل التقنية، فجعل جيشًا بقيادة خالد بن الوليد يتوجه إلىٰ بلاد نجد حيث طليحة بن خويلد في بني أسد، فإذا فرغ من طليحة يسير إلىٰ البطاح حيث مالك بن نويرة في بني تميم.

وجيش بقيادة عكرمة بن أبي جهل يتوجه به إلىٰ اليمامة حيث مسيلمة في بني حنيفة.

وجيش بقيادة المهاجر بن أمية يتوجه إلىٰ صنعاء باليمن حيث أتباع الأسود العنسي.

وجيش بقيادة طُرَيْفة بن حاجز يتوجه إلىٰ منازل بني سليم ومن معهم من مرتدي هوازن.

جيش بقيادة عمرو بن العاص يتوجه شمالًا إلىٰ قبائل قضاعة ووديعة والحارث.

Scanned by CamScanner

جيش بقيادة خالد بن سعيد يتوجه إلىٰ مشارف الشام.

جيش بقيادة العلاء بن الحضرمي يتوجه إلىٰ البحرين، لمرتدي عبد القيس وقبائل ربيعة.

جيش بقيادة حذيفة بن محصن يتوجه إلىٰ دبا بعمان.

جيش بقيادة عرفجة بن هرثمة يتوجه إلىٰ أهل مهرة.

جيش بقيادة سويد بن مقرن يتوجه إلىٰ تهامة باليمن.

ثم جيش بقيادة شُرَحْبيل بن حسنة بعثه في إثر جيش عكرمة إلىٰ اليمامة.

ضمنت خطة أبي بكر إحكام التعاون بين هذه الجيوش جميعها، بحيث لا تعمل كأنها منفصلة تحت قيادة مستقلة، وإنما هي رغم تباعد المكان جهاز واحد، وقد تلتقي -أو يلتقي بعضها ببعض- لتفترق، ثم تفترق لتلتقي، كان ذلك والخليفة بالمدينة يدبر حركة القتال ومعاركه.

كان الصديق خبيرًا بالتضاريس والتجمعات البشرية وخطوط مواصلات جزيرة العرب، فمن يتمعن تسيير الجيوش ووجهة كل منها واجتماعها بعد تفرقها وتفرقها لتجتمع ثانية، يرىٰ تغطية سليمة رائعة صحيحة مثالية لجميع أرجاء الجزيرة مع دقة في الاتصال مع هذه الجيوش، فأبو بكر في كل ساعة يعلم أين مواقع الجيوش ويعلم دقائق أمورها

Scanned by CamScanner

وتحركاتها وما حققت، وما عليها في غدٍ من واجبات.
والمراسلات دقيقة وسريعة تنقل أخبار الجبهات إلىٰ مقر القيادة في المدينة حيث الصديق، وكان علىٰ صلة مستمرة مع جيوشه كلها، وبرز من المراسلين العسكريين ما بين الجبهات وبين مقر القيادة: أبو خيثمة النجاري الأنصاري، وسلمة بن سلامة، وأبو برزة الأسلمي، وسلمة بن وقش.

❁❁❁

بعد التنظيم الدقيق، وحسن الإعداد للجيوش الإسلامية التي عقد لها الصديق الألوية نجد الدعوة البيانية القولية تطل لتقوم بدورها وتدلي بدلوها، ولم تكن الكلمة في يوم من الأيام هي أضعف المواقف وإنما هي أقواها؛ لأنها تستتبع مواقف جادة لتحديد مصداقية الكلمة، وقد تؤدي الكلمة بصاحبها إلىٰ الذبح من أجل الشهادة للكلمة التي قالها.

حرر الصديق كتابًا عامًا ذا مضمون محدد سعىٰ إلىٰ نشره علىٰ أوسع نطاق ممكن في أوساط من ثبتوا علىٰ الإسلام ومن ارتدوا عنه جميعًا قبل تسيير قواته لمحاربة الردة، وبعث رجالًا إلىٰ محل القبائل، وأمرهم بقراءة كتابه في كل مجتمع، وناشد من يصله مضمون الكتاب بتبليغه لمن لم يصل إليه، وحدد الجمهور المخاطب به بأنه: «العامة

والخاصة، مَن أقام علىٰ إسلامه أو رجع عنه».

وكان مضمون الخِطاب: أن من يأبىٰ الرجوع إلىٰ صف المسلمين ويثبت علىٰ ردته، إنما هو محارب لا بد من شن الغارة عليه، تقتله، وتسبي نساءه وذراريه، ولن يعجز الله بأي حال؛ لأنه أنىٰ ذهب في ملكه. والشارة التي ينجو بها المرتدون من غارة المسلمين أن يعلن فيهم الأذان وإلا فالمعالجة بالقتال هي البديل.

وحتىٰ لا يترك الخليفة الأمر للقادة والجند بغير انضباط كتب للقواد جميعًا كتابًا واحدًا يدعوهم فيه إلىٰ الالتزام بمضمون كتابه السابق، كان نصه:

«هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ لفلان حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام، وعهد إليه أن يتقي الله ما استطاع في أمره كله، سره وعلانيته، وأمره بالجد في أمر الله ومجاهدة من تولىٰ عنه ورجع عن الإسلام إلىٰ أماني الشيطان، بعد أن يعذر إليهم فيدعوهم بداعية الإسلام، فإن أجابوه أمسك عنهم، وإن لم يجيبوه شنَّ غارته عليهم حتىٰ يقروا له، ثم ينبئهم بالذي عليهم والذي لهم، فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذي لهم، لا وينظرهم ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم، فمن أجاب إلىٰ أمر الله عَزَّوَجَلَّ وأقر له قبل

ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف، وإنما يتقبل من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله، فإذا أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيل، وكان الله حسيبه بعد فيما استسر به، ومن لم يُجِب داعية الله قتل وقوتل حيث كان وحيث بلغ مراغَمه، لا يقبل من أحد شيئًا أعطاه إلا الإسلام، فمن أجابه وأقر قبل منه وعلمه ومن أبى قاتله، فإن أظهره الله عليه قتل منهم كل قتلة بالسلاح والنيران، ثم قسم ما أفاء الله عليهم إلا الخمس فإنه يبلغناه، وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد وألا يدخل فيهم حشوًا حتى يعرفهم ويعلم ما هم لا يكونوا عيونًا، لئلا يؤتى المسلمين من قبلهم، وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم في السير والمنزل ويتفقدهم، ولا يعجل بعضهم عن بعض، ويستوصي بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول..».

(٢٨)

انطلقت الألوية التي عقدها الصديق ترفرف عليها أعلام التوحيد، مصحوبة بدعوات خالصة من قلوب تعظم المولى عَزَّوَجَلَّ وتشربت معاني الإيمان، ومن حناجر لم تلهج إلا بذكر الله تعالى، وراح المسلمون يحاربون بني تميم، وأخذت السيوف مأخذها من الرقاب، فأتاهم أمر أدهى مما كانوا فيه،

Scanned by CamScanner

أقبلت سجاح بنت الحارث من الجزيرة.

كانت سجاح من نصارىٰ العرب، وقد ادعت النبوة بعد موت رسول الله، وخرجت لقتال أبي بكر ومعها جنود من قومها ومن التف بهم، فلما انتهت إلىٰ (الحَزْنُ)[1] راسلت مالك بن نويرة ودعته إلىٰ الموادعة، فأجابها ولوَّاها عن غزو أبي بكر وحملها علىٰ غزو أحياء بني تميم.

فقالت نعم فشأنك بمن رأيت، فإنما أنا امرأة من بني يربوع، فإن يكن مُلكًا، فالملك لكم.

واجتمع إليهم وكيع بن حسان، وقد وادع بعضهم بعضًا، واجتمعوا علىٰ قتال الناس، فقالوا بمن نبدأ؟

قالت:

- أعدوا الركاب واستعدوا للنهاب ثم أغيروا علىٰ الرَّبَابِ فليس دونهم حجاب.

ودارت معركة شديدة قتل فيها قتل كثير، واجتمع إليها رؤساء أهل الجزيرة فقالوا لها:

- ما تأمرين؟

- اليمامة!

(١) الحزن: قفّ غليظ مائل من طريق الكوفة إلىٰ مكة وهو لبني يربوع.

Scanned by CamScanner

- إن شوكة أهل اليمامة شديدة وقد غلظ أمر مسيلمة؟!

- عليكم باليمامة ، دفوا دفيف الحمامة، فإنها غزوة صرامة، لا تلحقكم بعدها ملامة.

قالتها بإصرار، وخرجت إلىٰ بني حنيفة، وبلغ ذلك مسيلمة فهابها، وخاف إن هو شغل بها يغلبه جيش عكرمة، فقد انتهت إليه الأنباء أنه علىٰ مشارف اليمامة.

جهز مسيلمة هدايا ثمينة وأرسل إلىٰ سجاح يستأمنها علىٰ نفسه حتىٰ يأتيها، فأذنت له وأمنته، فجاءها وافدًا في أربعين من بني حنيفة، وكانت راسخة في النصرانية قد علمت من علم نصارىٰ تغلب.

فقال مسيلمة:

- لنا نصف الأرض، وكان لقريش نصفها لو عدلت، وقد رد الله عليك النصف الذي ردت قريش، فحياكِ به، وكان لها لو قبلت.

- لا يرد النصف إلا من حنف، فاحمل النصف إلىٰ خيل تراها كالسهف.

تلمح مسيلمة منها القبول والموادعة، فراح يدارسها فقال:

- ما أوحي إليك؟

Scanned by CamScanner

- هل تكون النساء يبتدئن؟! أنت ما أوحي إليك؟

- اسمعي: سبح اسم ربك الأعلىٰ.. الذي يسر علىٰ الحبلىٰ.. فأخرج منها نسمة تسعىٰ.. من بَين أحشاء ومعىٰ.. فمنهم من يموت ويدس في الثرىٰ.. ومنهم من يعيش ويبقىٰ إلىٰ أجل ومنتهىٰ.. وَالله يعلم السر وأخفىٰ.. وَلَا تخفىٰ عَلَيهِ الآخِرَة وَالأولَىٰ.

انتشت له سجاح وهزت رأسها طربًا، وقالت:

- وماذا أيضًا؟

- أُوحي إليَّ أن الله خلق النساء أفراجًا، وجعل الرجال لهن أزواجًا، فنولج فيهن قَعسًا إيلاجًا، ثم نخرجها إن شاء إخراجًا، فينتجن لنا سِخالًا إنتاجًا.

داعب بهذه الكلمات الوقحة رغبات سجاح الأنثوية، فقالت له معجبة:

- أشهد أنك نبي..

فاستغل ضعف الأنثىٰ، فقال:

- هل لكِ أن أتزوجك، فأكل بقومي وقومك العرب؟

- نعم.

وبعد حوار فيه الكثير من الابتذال والخلاعة، منحت

Scanned by CamScanner

سجاح نفسها لمسيلمة، وأقاما في خيمة ضُربت لهما ثلاثًا، ثم انصرفت إلىٰ قومها، فقالوا:

- ما عندكِ؟

- كان علىٰ الحق فاتبعته فتزوجته.

- فهل أصدقك شيئًا؟

- لا!

- ارجعي إليه فقبيح بمثلك أن ترجع بغير صداق.

فلما رآها مسيلمة أغلق الحصن، فقال:

- مالكِ؟

- اصدقني صداقًا.

- اجعلي مؤذنك ينادي في أصحابه أن مسيلمة بن حبيب قد وضع عنكم صلاتين مما أتاكم به محمد، العشاء والفجر.

انصرفت سجاح إلىٰ بني تغلب، ومعها أصحابها وقد حملت نصف غلات اليمامة.

(٢٩)

اشرقت الشمس علىٰ جيش عكرمة إذ باتوا بعد أن أرخىٰ الليل ستوره عليهم أثناء سيرهم في ليلتهم الفائتة، فاستيقظ

Scanned by CamScanner

المسلمون، وتجهزوا لمواصلة السير، وإذ بالطفيل بن عمرو يقول لأصحابه:

- إني قد رأيت رؤيا فعبروها لي.

- وما رأيت؟

- رأيتُ أن رأسي قد حُلق، وأن طائرًا خرج من فمي، وأن امرأة أدخلتني في بطنها، وأن ابني عَمرًا جعل يطلبني حثيثًا لكنه حيل بيني وبينه.

فقالوا: خيرًا.

قال: أما أنا والله لقد أولتها، أما حلق رأسي فذلك أنه يقطع، وأما الطائر الذي خرج من فمي فهو روحي، وأما المرأة التي أدخلت في بطنها فهي الأرض تحفر لي، فأدفن في جوفها.. وإني لأرجو أن أقتل شهيدًا.

وأما طلبُ ابني لي فهو يعني أنه يطلب الشهادة التي سأحظىٰ بها -إذا أذن الله- لكنه يدركها فيما بعد..

❁❁❁

تعجل عكرمة شرف النصر وهزيمة بني حنيفة ومسيلمة فلم ينتظر وصول شرحبيل بن حسنة وجيشه، بل عجل بالهجوم علىٰ مسيلمة وقومه، فدارت معركة بين المسلمين

Scanned by CamScanner

والمرتدين، كان النصر فيها حليفًا لمسيلمة ورُد عكرمة على أعقابه مهزومًا.

وجاء جيش شرحبيل بن حسنة وتزامن معه قدوم خالد بن الوليد من البطاح فقد فرغ من مالك بن نويرة وأنهى أمره، وبعثه أبو بكر ليساند المسلمين في اليمامة أمام مسيلمة.

قوي جيش المسلمين، وصار فيه كبار أبطال المعارك، البراء بن مالك وأخوه أنس، وزيد بن الخطاب وابن أخيه عبد الله بن عمر، وحذيفة بن عتبة ومولاه سالم، والطفيل بن عمرو وابنه عمرو، وعمار بن ياسر، وثابت بن قيس وأبو دجانة ووحشي بن حرب، وثمامة بن أُثال، وعباد بن بشر، وجمع من المهاجرين والأنصار، ومعهم أم عمارة نسيبة بنت كعب وولدها عبد الله بن زيد تريد أن تثأر لابنها حبيب وقد تجاوزت الستين عامًا.

❁❁❁

التقى الجيشان على أرض اليمامة، وأسر خالد جمعًا من جيش مسيلمة فيهم مجاعة بن مرارة، وقد كان سيدًا في بني حنيفة شريفًا مطاعًا، فقيده خالد وجعله في الخيمة مع امرأته أم تميم.

وحمي وطيس المعركة، وأبدى فيها المسلمون من

Scanned by CamScanner

ضروب الشجاعة ما يعجز عن وصفه الواصفون، كما أبدىٰ فيها أصحاب مسيلمة ما لا يقل عن ذلك شجاعة وإقدامًا وبذلًا.

وقام شُرَحْبِيلُ بنُ مُسَيلِمَةَ خطيبًا في قومه يستحثهم قائلًا:

«يَا بَنِي حَنِيفَةَ، الْيَوْمَ يَوْمَ الْغَيْرَةِ، الْيَوْمَ إِنْ هُزِمْتُمْ تستردف النِّسَاءُ سَبِيَّاتٍ، وَيُنْكَحْنَ غير خطيبات، فَقَاتِلُوا عَنْ أَحْسَابِكُمْ، وَامْنَعُوا نِسَاءَكُمْ فَاقْتَتَلُوا بِعَقْرَبَاءَ..».

وَخَرَجَ مُسَيْلِمَةُ بِمَجْمُوعَةٍ من جيشه فَنَزَلُوا بِعَقْرَبَاءَ، وَهِيَ طَرَفُ الْيَمَامَةِ، فَحَلَّ بِهَا خَالِدٌ عَلَيْهِمْ، وما هو إلا قليل حتىٰ رجحت كفة مسيلمة وأصحابه، وزلزلت الأرض تحت أقدام جنود المسلمين البواسل.. رُميَّ أبا عقيل الأنصاري بسهم فوقع بين منكبيه وفؤاده فجرح في غير مقتل، فأخرج السهم عن جسده، والدماء تنزف منه، وشقه الأيسر قد وهن، فأخذه المسلمون إلىٰ معسكرهم، وطفق يتراجع جيش المسلمين عن مواقفهم حتىٰ اقتحم أصحاب مسيلمة خيمة خالد بن الوليد، واقتلعوها من أصولها ومزقوها شر ممزق، وحرروا مجاعة، وكادوا يقتلون زوجته أم تميم، فمنعها مجاعة، وقال: أنا لها جار.. فنعمت الحرة هي.

فكانت تطعمه، وتسقيه في أسره، وتستوصي به خيرًا،

فحفظ لها الجميل، فأطلقوا زوجة خالد بن الوليد، وأخذوا مجاعة، وبدءوا يقاتلون المسلمين قتالًا شديدًا.

وجبَّنَ المهاجرون والأنصار أهلَ البوادي وجبَّنَهم أهلُ البوادي، ورأىٰ عباد بن بشر من تواكل الأنصار علىٰ المهاجرين، وتواكل المهاجرون علىٰ الأنصار، ما شحن صدره أسىٰ وغيظًا، وسمع من تنابزهم ما حشىٰ سمعه جمرًا وشوكًا، فأيقن أنه لا نجاح للمسلمين في هذه المعركة الطاحنة إلا إذا تميز كل من الفريقين عن الآخر ليتحمل مسئوليته وحده..

ورأىٰ ثابت بن قيس وقع الهجوم الخاطف لذي شنَّه جيش مسيلمة علىٰ المسلمين، فصاح بصوته النذير الجهير:

- يا معشر المسلمين ما هكذا كُنا نقاتل مع رسول الله.. بئس ما عودتم أعداءكم من الجرأة عليكم.. وبئس ما عودتم أنفسكم من الانخذال لهم..

ثم التفت إلىٰ أهل اليمامة، وقد امتلئ صدره همًا وغمًا، ورفع طرفه إلىٰ السماء ودعا ربه قائلًا:

- اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء من الشرك.

والتفت ناحية المسلمين وقال:

- وأبرأ إليك مما يصنع هؤلاء.

Scanned by CamScanner

عند ذلك شَعر المسلمون بالخطر الداهم وأدركوا أنهم إن يهزموا أمام مسيلمة فلن تقوم للإسلام قائمة بعد اليوم.

وهبَّ خالد إلىٰ جيشه فأعاد تنظيمه، حيث ميز المهاجرين عن الأنصار، وأبناء البوادي عن هؤلاء وهؤلاء، وجمع أبناء كل أب تحت راية واحد منهم، ليعرف بلاء كل فريق في المعركة، وليعلم من أين يؤتىٰ المسلمون.

(٣٠)

استعد المسلمون لمعركة حاسمة فارقة، ورأىٰ عباد بن بشر فيما يراه النائم أن السماء انفرجت له، فلما دخل فيها ضمته إليها وأغلق عليه بابها..

فلما أصبح حدَّث أبا سعيد الخدري برؤياه، وقال:

- والله إنها الشهادة يا أبا سعيد.

فلما طلع النهار واستؤنف القتال، رَقَ عباد بن بشر نشزًا من الأرض، وجعل يصيح:

- يا معشر الأنصار..

تميزوا من الناس.. وحطموا جفون السيوف.. ولا تتركوا الإسلام يؤتىٰ من قِبلكم.

Scanned by CamScanner

وحفر ثابت بن قيس لقدميه في الأرض إلىٰ أنصاف ساقيه، وهو يحمل لواء الأنصار بعدما تحنط وتكفن، فلم يزل ثابتًا ينادي بشعار المسلمين وتتردد في أذنيه بشارة النبي له:

«لستَ من أهل النار، ولكنك من أهل الجنة».

فأبلىٰ بلاءً عظيمًا ملأ قلوب المسلمين حمية وعزمًا، ولا يزال يجاهد في كل اتجاه حتىٰ اثخنته الجراح، فتقطع إحدىٰ رجليه، ويقع علىٰ الأرض، ثم يسمع النداء: يا للأنصار.

فيسرع، وهو برجل واحدة، ويحبو علىٰ الأرض، يقول له أبو سعيد الخدري:

- ما عليك؟.

- أُلبي ولو حبوًا.

فيسرع حبوًا حتىٰ يلتقي مع المشركين، فيقتل، فيخر صريعًا علىٰ أرض المعركة قرير العين بما كتب الله له من الشهادة التي بشره النبي بها، مثلوج الصدر بلقياه.

❁❁❁

ودارت رحىٰ معركة ضروس بين الفريقين لم تعرف حروب المسلمين لها نظيرًا من قبل، وثبت قوم مسيلمة في

Scanned by CamScanner

ساحات الوغىٰ ثبات الجبال الراسيات ولم يأبهوا لكثرة ما أصابهم من القتل.

وأبدىٰ المسلمون من خوارق البطولات ما لو جمع لكان ملحمة من روائع الملاحم.

وأخذ الصحابة ينادون: يا أصحاب سورة البقرة بطل السحر اليوم.

ووقف زيد بن الخطاب وكان طويلًا بائن الطول كأخيه عمر إلا أنه كان أسمر البشرة، وقف ينادي في المسلمين:

- أيها الناس عضوا علىٰ أضراسكم، واضربوا في عدوكم وامضوا قدمًا..

أيها الناس.. والله لا أتكلم بعد هذه الكلمة أبدًا، حتىٰ يُهزم مسيلمة أو ألقىٰ الله، فأدلي إليه بحُجتي.

ثم كرَّ علىٰ القوم كأنه جسورٌ يلعب بسيفه ويقط الرءوس، وبدأ يجمع حوله مجموعة من الصحابة الأبرار، ويقاتل قتالًا شديدًا في جهة اليمين وهو قائد الميمنة، حتىٰ وفقه الله تعالىٰ إلىٰ أن يصل إلىٰ الرجَّال بن عنفوة، وهو قائد ميسرة المرتدين، فتبارز معه، ومحق الحقُ الباطل، فقتل زيد بن الخطاب الرجَّال بن عنفوة، ليموت علىٰ الردة بعد أن تعلم علىٰ يد

رسول الله، ويستمر زيد في القتال، وبمجرد موت الرجَّال، تضعف الهمة عند بني حنيفة، فهو أحد قادتهم، ومن كبار رجالهم، وقد تبعه في ردته أربعون ألفًا، فضعفت الهمة في قلوبهم، فانكسروا انكسارًا كبيرًا، وهجم عليهم المسلمون، واستمر زيد بن الخطاب في القتال، ودخل في عمق جيش المرتدين، ثم قابله رجل يسمىٰ أبو مريم الحنفي من بني حنيفة، فتقاتل معه، فقدَّر الله تعالىٰ أن يحقق لزيد بن الخطاب أمنيته، ويلقىٰ الشهادة علىٰ يد أبي مريم الحنفي.

وقُتل عبد الله بن حفص حامل لواء المهاجرين، فأخذ الراية سالم مولىٰ أبي حذيفة، وكان رجلًا ضعيف البنية، فقال له المهاجرون:

- إنا لنخشىٰ أن نؤتىٰ من قبلك!

- إن أتيتم من قبلي فبئس حامل القرآن أكون..

أجابهم ثم كرَّ علىٰ الأعداء كرة باسلة.

وقُطعت أذن عمار بن ياسر، فوقف علىٰ صخرة مشرفة، وأذنه عالقة برأسه، فقال:

- يا معشر المسلمين..

أمن الجنة تفرون؟! إليَّ.. إليَّ يا معشر المسلمين..

Scanned by CamScanner

ثم مضىٰ أمامهم وأذنه تتذبذب علىٰ صفحة خده.

ومضىٰ عباد بن بشر بمن معه يشق الصفوف بسيفه، ويلقىٰ الحتوف بصدره، تلاه أبو حذيفة بن عتبة، وهو ينادي:

- يا أهل القرآن.. زينوا القرآن بأفعالكم.

وحمل علىٰ بني حنيفة حملة صادقة حتىٰ أبعدهم عن خيام المسلمين.

واندفع سالم يجالد عن راية المهاجرين حتىٰ قطعت يده اليمنىٰ، فأخذ الراية بيده اليسرىٰ، وناضل عنها حتىٰ قطعت يسراه، فاحتضنها وهو يقول:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [آل عمران:١٤٤].

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [آل عمران:١٤٦].

وثبت بالراية حتىٰ أثخنته الجراح، وسقط علىٰ الأرض مدرجًا في دمائه.

ورأىٰ خالد وطيس المعركة يحمىٰ ويشتد، فالتفت إلىٰ البراء بن مالك، وقال:

- إليهم يا فتىٰ الأنصار..

Scanned by CamScanner

فنظر البراء إلىٰ قومه وهو يقول:

- يا معشر الأنصار.. لا يفكرن أحد منكم بالرجوع إلىٰ المدينة، فلا مدينة لكم بعد اليوم، وإنما هو الله وحده.. ثم الجنة.

وحمل علىٰ المرتدين وحملوا معه، وانبرىٰ يشق الصفوف، ويعمل السيف في رقاب أعداء الله حتىٰ زُلزلت أقدام مسيلمة وأصحابه.

وسمع أبو عقيل -وهو في المعسكر واهن من جرحه- مَعْنَ بن عَدِيٍّ يصيح:

- يا للأنصار، الله الله والكرة علىٰ عدوكم.

فنهض أبو عقيل يريد قومه، فقال له بعض المسلمين:

- يا أبا عقيل ما فيك قتال!

فأجابهم ودمعة تسبق لسانه:

- قد نوه المنادي باسمي!

- إنما يقول يا للأنصار لا يعني الجرحىٰ.

- فأنا من الأنصار وأنا أجيب ولو حبوًا.

قالها وتحزم وأخذ السيف بيده اليمنىٰ مجردًا، «ومَعْنٌ»

يتقدم القوم، ثم جعل أبو عقيل ينادي وقد عادت القوة إلىٰ جسده:

- يا للأنصار كثرة كيوم حنين.

فاجتمعوا جميعًا وتقدموا بروح معنوية عالية يطلبون الشهادة أو النصر.

وحمل خالد بن الوليد حتىٰ جاوزهم وسار لقتال مسيلمة وجعل يترقب أن يصل إليه فيقتله، ثم رجع ثم وقف بين الصفين ودعا إلىٰ المبارزة، وأنشد:

- أنا ابن الوليد العود.. أنا ابن عامر وزيد.

ثم نادىٰ بشعار المسلمين:

- وا محمداه

فأخذت تجلجل في ساحة المعركة، فنشط الفكر لفراقه، وحنَّت القلوب للقائه، صورة الرسول تملأ رءوسهم، وصوته يسري كالنسيم في أغوارهم، ووثبَ المسلمون من كل مكان يُعملون سيوفهم في عدوهم، وجعل لا يبرز لخالد بن الوليد أحد إلا قتله ولا يدنو منه شيء إلا أكله، ودارت رحىٰ المسلمين وطحنت، ودنا خالد من مسيلمة فأدبر وهرب، وشد المسلمون علىٰ المرتدين فنادىٰ أحدهم:

- الحديقة الحديقة.

Scanned by CamScanner

(٣١)

تدفق بنو حنيفة إلىٰ حديقة مسيلمة، وكانت رحبة الأرجاء سامقة الجدران، فأغلق مسيلمة والآلاف المؤلفة من جنده عليهم أبوابها، وتحصنوا بعالي جدرانها الصخرية، وأحاط المسلمون بهم من كل اتجاه خارج أسوارها، فجعل بنو حنيفة يمطرون المسلمين بنبالهم وسهامهم من داخلها، فتسقط عليهم تساقط السيل.

وعند أسوار الحديقة سقط عدد من المسلمين، عند ذلك تقدم مغوار المسلمين الباسل البراء بن مالك، وقال:

- يا قوم ضعوني علىٰ تُرس، وأرفعوا الترس علىٰ الرماح، ثم اقذفوني إلىٰ الحديقة قريبًا من بابها، فإما أن أستشهد وإما أن أفتح لكم الباب.

❁❁❁

في لمح البصر جلس البراء بن مالك علىٰ ترس حَربي، فقد كان مَعرُوق العظم، ضئيل الجسم، رفعته عشرات الرماح بأيادي الصحابة الذين كانت قلوبهم ترتجف خوفًا علىٰ صاحبهم أن يكون لقمة سائغة لعدوهم، لكنهم امتثلوا أمر

قائدهم خالد بن الوليد، الذي كان يثق في قدرات البراء الحربية وشجاعته، واستقر البراء فوق الترس، وسحب نفسًا عميقًا غار داخل رئتيه وتشعب في القصبات الهوائية، متحفزًا أن يحطم علىٰ مسيلمة وجنده حِصنهم المنيع، ارتفعت أيادي الجُند عاليًا وقاربت الرماح من قمة السور، وبلغ الترس طرفه، وبدفعة واحدة كان البراء يقفز عاليًا يتخطىٰ السور ويستقر داخل الحديقة بين الآلاف المؤلفة من جُند مسيلمة، فنزل عليهم نزول الصاعقة شاهرًا سيفين عظيمين في كلتا يديه، وطفق يقاتل ويغوص في صفوف الأعداء، وما زال يجالدهم أمام باب الحديقة، ويعمل في رقابهم السيف حتىٰ قتل عشرة منهم، وفتح الباب، وبه بضع وثمانون جرحًا ما بين رمية سهم أو ضربة بسيف.

- الله أكبر..

الله أكبر..

الله أكبر..

تدفق المسلمون إلىٰ الحديقة من أسوارها وأبوابها، واحدًا تلو الآخر، ثمامة، وعمار، ووحشي وأبو دجانة والطفيل وابنه عمرو وأم عمارة وابنها عبد الله بن زيد، وكثير من بواسل وكماة الصحابة، وقُطعت يد أبي عقيل من

Scanned by CamScanner

المنكب، وجرح الكثير من الصحابة البواسل، فأغلق البراء الباب ورما بالمفتاح، وألقىٰ عباد بن بشر درعه علىٰ بابها، ثم دخل بالسيف صلتًا يجالد المرتدين حتىٰ قتل شهيدًا مُدَرَّجًا في دِمَائِه وفيه ما فيه من ضربات السيوف وطعنات الرماح ووقع السهام، فما عرفه المسلمون إلا بعلامة كانت في جسده. ولم يبقَ أمام المسلمين إلا أن يُفنوا بني حنيفة أو أن يَفنَوا هُم.

اشتد القتال، وراح الرجال من الجانبين يسقطون صرعىٰ، أمواج بشرية متلاطمة داخل الحديقة، أعمل المسلمون سيوفهم في رقاب المرتدين اللائذين بجدران الحديقة، وتحول حصن بني حنيفة المنيع إلىٰ حصار قاهر، ونسيبة تشقُ الصفوفَ كاللبؤة الثائرةِ وهي تنادي:

- أين عدوُّ الله؟ دُلوني علىٰ عدوِّ الله.

ثم ضُربت بسيفٍ فقطعت يدها، فلم تكن أقلَّ من إخوانها بسالة وقوة، وانكسرت قدم أبي دجانة، وأبلىٰ الطفيل أعظم البلاء، حتىٰ خر شهيدًا كما رأىٰ في الرؤيا.

أما ابنه عمرو فما زال يقاتل حتىٰ أثخنته الجراح وقطعت كفه اليمنىٰ.

وبينما خالد بن الوليد علىٰ فرسه يجول ضربًا بسيفه، إذ

Scanned by CamScanner

عانقه فارس من بني حنيفة، فوقع كليهما عن فرسيهما، واصطك الفرسان أرضًا وعَلَىٰ صهيلهما، ثم تعانق خالد والآخر بالأرض، فوَجَأَه خالد بخنجر في سيفه، وجعل الآخر يَجَؤُهُ بمعول في سيفه، فجرحه سبع جراحات نزف منها دمًا كثيرًا، وجرحه خالد جرحًا أثبته به فاسترخىٰ في يده وما به حركة من الجراح.

وثبتت المرتدون علىٰ القتال حتىٰ شاء الله تعالىٰ أن يُقتل مُحَكِّم بن الطفيل وزيرَ مسيلمة الكذاب، وقائد ميمنته، قتله عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، بينما كان يخطب في الناس ويحفزهم لقتال المسلمين، فرماه عبد الرحمن برمحه فدخل الرمح في عنقه فسقط صريعًا مرتدًّا، وكان يشارك في المعركة من أبناء أبي بكر الصديق عبد الله وعبد الرحمن.

ولما قُتل محكم بن الطفيل عَلَت همة المسلمين، وضعفت نفوس المرتدين، وازداد القتل في المرتدين.

وتطاير أنصار مسيلمة عنه، وانتشرت الجثث تغطي الزرع والحشائش، وتحول الأخضر إلىٰ يابس، وكسىٰ لون الدم بهاء الطبيعة.

Scanned by CamScanner

(٣٢)

«إن هذه والله فرصتك يا وحشي فاغتنمها، ولا تدعها تُفلت من يدك».

غمغم بها وحشي في نفسه فور أن رأىٰ مسيلمة يختبئ من كماة الإسلام، فجعل يتربص به وبيده حربته التي قتل بها حمزة، وجعل أبو دجانة يتربصه أيضًا، كلاهما يريد قتله.

فلما تحينت الفرصة، هزَّ وحشي حربته حتىٰ إذا استقامت في يده، دفع بها نحو مسيلمة لتستقر بين رجليه، فسقط لتوه، فوثبَ أبو دجانة عليه بالسيف فطعنه طعنات فتركه كأمس الدابر.

وقُرَّتْ عينا أم عمارة بهذا المشهد الذي كانت تسعىٰ أن تكون بطلة الضربة القاضية فيه، لكنها أثخنتها الجراح، بعد أن قطعت يدها وجُرحت أحد عشر جرحًا، نسيت آلمها، فقد التام جرحها الأقوىٰ جرح فقدان حبيب ابنها.

غطت الحديقة الجثث من كل اتجاه، فقد مات من جيش مسيلمة نحو عشرين ألفًا فعُرفت من يومها بـ«حديقة الموت».

وصرخ صارخ إن العبد الأسود قتل مسيلمة، فدخل خالد الحديقة وفي يده أسيره مجاعة مقيدًا، فجعل يكشف له القتلة واحدًا فواحد.. فإذا رويجل أصفر أُحينس، قال مجاعة:

Scanned by CamScanner

- هذا صاحبكم قد فرغتم منه. (يقصد مسيلمة).

فقال خالد:

- هذا صاحبكم الذي فعل بكم ما فعل.

أمر خالد بالبراء فحمل إلىٰ رحله ليداوىٰ فيه، ومر خالد علىٰ سالم مولىٰ أبي حذيفة، وكان ما يزال به رمق، فوقف عليه وحيَّاه، فقال له سالم:

- ما صنع المسلمون يا خالد؟

- كتب الله لهم النصر، فقتل لهم مسيلمة الكذاب، وهزم جنده وأتباعه.

- وما فعل أخي أبي حذيفة؟

- مضىٰ إلىٰ ربه مقبلًا غير مدبر، فقُتل شهيدًا.

- اضجعوني إلىٰ جانبه..

- ها هو موسد عند قدميك.

فأغمض عينيه وهو يقول:

معًا هنا يا أبا حذيفة، ومعًا هناك إن شاء الله.

تمت

والحمد لله

الإسكندرية ٢٠١٥/٥/٢٧

Scanned by CamScanner